إن هذه أمتكم أمة واحدة

١٤٢٦

لنكون خير أمة

١٤٣٥

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي

لنكون خير أمة
١٤٣٥

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

هوية الكتاب:

* **الكتاب**: لنكون خير أمة
* **المؤلف**: المرجع الديني آية الله العظمي السيد محمد تقي المدرسي.
* **الطبعة**: الثانية، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م. (٨٧ صفحة).
* **الناشر**: دار محبي الحسين عليه السلام - مركز العصر للثقافة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

المقدمة

بالرغم من تشتت المسلمين في أقطار مختلفة، وانفصالهم عن بعضهم في بقاع تحول بينهم حدود مصطنعة.. إلاّ ان الجميع يشعر في قرارة نفسه بأنه ينتمي الى أمة واحدة، ألا وهي الأمة الاسلامية، وتجمعهم اواصر مشتركة لايمكن انكارها.

ولا نبيح سراً إذا قلنا بأن هذا التشتت والانقسام انما حصل بسببين أساسيين:

السبب الأول: الجهل والتخلف، ذلك الاخطبوط الخفي الذي أخذ يمد أذرعه الى جل أفراد الأمة بطريقة أو أخرى، بحيث جعل الأمة تعيش في أحلام الماضي المجيد، مبررة تقاعسها وانتكاساتها..

السبب الثاني: الاستعمار، حيث ان ثروات وامكانات الأمة الاسلامية أسالت لعاب القوى الكبرى، فراحت تتآمر على الأمة الاسلامية بخطة تلو أخرى، لاجل تحقيق مطامعها ومصالحها في أمتنا.

وبادئ ذي بدء وجدت هذه الدول الاستعمارية أنها لم يكن بوسعها السيطرة على الأمة الاسلامية مرة واحدة، لذا لجأت الى استخدام سياسة (فرق تسد)، فعملت على تجزئة الأمة، وتفتيت كيانها.

واليوم بعد ان عانت الأمة ما عانته من ويلات وانتكاسات.. حتى صارت تعيش في الحضيض بسبب تلك الانقسامات؛ انتبه رجال الأمة على الواقع المزري الذي تعيشه الأمة، فبادروا الى اثارة الوعي فيها، يرجون من ذلك ان يعيدوا للامة هويتها الاصيلة، وارجاع مجدها ورقيها وسيادتها.

وكان من هؤلاء سماحة آية الله السيد محمد تقي المدرسي الذي القى طائفة من المحاضرات في هذا الشأن الخطير. وقد بادر الأخوة في القسم الثقافي في مكتبه الى تحريرها وتبويبها، لعلها تثير دفائن العقول بإذن الله، ولتنهض الأمة الاسلامية من جديد وتنفض عن نفسها غبار التخلف والجهل، ولتكسر قيود الاستعمار والاستغلال، ولتصبح أمة حرة مستقلة يعيش أبناءها الخير والسعادة، وما ذلك على الله بعزيز.

القسم الثقافي
في مكتب سماحة آية الله المدرسي
٢٧ / ربيع الأول / ١٤١٧ هـ

ملامـح الأمـة الاسلاميـة

﴿وَجَاهِـدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُـمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَـهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُـهَدَآءَ عَلى النَّاسِ فَاَقِيمُـوا الصَّـلاَةَ وءَاتُـواْ الـزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُـوا بِاللَّهِ هُـوَ مَوْلاَكُـمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

هـذه الآيـة الاخيرة من سـورة الحج تحـدد لنـا ملامح الأمة الاسلامية الواحدة التي قال عنها ربنا سبحانه وتعالى في آية أخـرى:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُـمْ أمـــة وَاحِـــدَةً وَأَنَـاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُـدُونِ﴾[2].

الجهاد حصن الأمة:

ومـن ضمـن هـذه الملامـح وأبرزهـا الجهـاد والاسـتعداد للتضحية في اي وقت وبأي شكل من الاشكال. فالحياة - في منطق

(١) الحج: ٧٨.
(٢) الانبياء: ٩٢.

الاسلام – ليست الدعة والراحة، وليست الاستسلام والانهزام، والتبرير والعبودية والاستغلال.. بل هي دفاع عن الذات، وتصد للصعوبات، وتحد للعقبات، ومقاومة للمحورية الذاتية، وعودة الى احضان الجماعة، واستعداد للعطاء والتضحية..

وفي هذا المجال يقول – عز من قائل –: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾؛ أي اعطوا من انفسكم، وجهودكم، وما تمتلكون في انفسكم من طاقات ومواهب، اعطوها حقها من الجهاد، وهذا التعبير (حق الجهاد) قد يعني واحدة من الفكرتين التاليتين:

١ – ان جهاد الانسان المسلم ينبغي ان يكون بقدر حبه لله تبارك وتعالى، وخضوعه له، وشكره لنعمائه، وصبره على بلائه. فقبل كل شيء لابد ان يسأل الانسان نفسه: كيف يقدر الله في نفسه؟ اي المقدار من عظمة الله الذي غمر قلبه، والمقدار من حب الله الذي استولى على نفسه، والمقدار من الخضوع والتسليم اللذين قد هيمنا على جوارحه.. وبنفس هذا المقدار يجب ان يعطي في سبيل الله عز وجل.

ومع ذلك فاننا لو اعطينا من انفسنا كل ما نملك فاننا نكون قد اعطينا القليل لرب العالمين، لانه جل وعلا أعطانا كل شيء، وهو مالك كل شيء فينا. فمإذا اعطينا – نحن – لله، وهل كنا نمتلك شيئاً لايمتلكه الله لكي نعطيه له، بل هل نحن نمتلك حتى قرار العطاء؟! ان قرارنا بشأن العطاء والتضحية هو الآخر بتوفيق من الله تقدست اسماؤه لابد ان نشكره عليه.

٢- الجهاد يتطلب من الانسـان - فـي بعض الاحيان - عملاً روتينياً محدوداً؛ كما إذا كانت الأمة مستقرة ومستقلة، وكان الجميع يعطون من انفسـهم، ففي هـذه الحال يكون عطاء الانسـان محدوداً بقدره، ولكن الجهاد قد يقتضي عملاً كبيراً، وعطاءً سخياً، وفي هذه الحالـة ينبغي ان يكون جهاد الانسـان بقدر واجبات الجهاد وعطاؤه بقدر ضرورات العطاء.

وبناء على ذلك فان الميزة الاولى للأمة الاسلامية هي انها أمة مسـتعدة للجهاد، والأمة التي تسـتعد للجهاد هي أمة مسـتقلة، وامة واحـدة تناهض التبعية. فالجهـاد هو حصن الأمة ضد التجزئة، ومن دونه يسـتطيع العدو ان يفرض على الانسـان سيادته وسيطرته، ومن أبـرز ما يبتغيه العدو من وراء فرض سـيادته علـى الأمة هو تجزئتها. وعلـى هذا فـان الجهاد هو حصن الاسـتقلال، وحصـن الوحدة في ذات الوقت.

الأمـة المصطفاة:

ثم يقول جل وعلا: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾.

فالأمة الاسـلامية حقاً هي أمة مصطفاة، مجتبـاة، اجتباها الله تعالـى، واختارها لرسـالته التـي هي رسـالة انقاذ المسـتضعفين في الارض. وعلـى الرغـم مـن ان الأمـة مسـتعدة للجهـاد الا ان الدين لايشكل اصراً، وعبئاً على ابناء الأمة، لانهم يتفاعلون مع تعاليم الدين تفاعـل الرافـد مع المنبع. فهو تفاعل عفوي ميسـور الـى درجة انهم

عندما ينطلقون الى ساحات القتال، ويستقبلون رصاصات وقذائف العدو، ويتحملون الجوع والعطش والمشقة فانهم يستقبلون كل ذلك برضا في انفسهم، وطمأنينة وسكينة غامرتين.

الأمة الأصيلة:

الميزة الأخرى للأمة الاسلامية انها أمة اصيلة ذات امتداد تأريخي، وقد ورثت امجادها من النبي ابراهيم عليه السلام، ذلك النبي العظيم الذي قاوم لوحده كل الانحرافات الشركية في عصره، وكان أمة قانتاً لله تعالى كما ذكر ذلك القرآن الكريم. وهكذا الحال بالنسبة الى الأمة الاسلامية التي يقول عز وجل عنها: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا**﴾.

فالاسلام هو ميراث النبي ابراهيم وجميع الانبياء عليهم السلام، وهذا يعني ان الاسلام لم يأت لكي ينفي ويلغي الانبياء السابقين، بل لكي يكمل الرسالات السابقة.

الأمة الشاهدة:

الميزة الأخرى يقول عنها عز من قائل: ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ**﴾. فالأمة الاسلامية تمتلك راية، وما أدراك ما هذه الراية؛ انها راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو هدى وقدوة. فسيرته نور، وحياته كلها عبر ودروس. والأمة التي تمتلك شخصية كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وافضل الموجودات جميعاً.. لابد ان تكون أمة منتصرة، موحدة، عزيزة، قادرة على التحدي.

ان هذا الرجل العظيم الذي بعثه الله تعالى على فترة من الرسل، حيث كان الشرك والكفر مستوليين على جميع بقاع الارض، انبعث وحده، وقاوم كل تيارات الانحراف، واسس في عصره دولة اسلامية شامخة، وبنى أمة اسلامية مجيدة. وحري باتباع هذا الرجل ان يكونوا شهداء على الأمم الأخرى، ولذلك يقول سبحانه: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلى النَّاسِ﴾.

فالقلب الذي يعمر بحب رسول الله، والسلوك الذي يهتدي بسيرته، والعمل الذي يتخذ منه ﷺ قدوة ينبغي ان يكون سراجاً منيراً، وسلوكاً حسناً، وعملاً قدوة، ورجلاً شاهداً، وقائداً للامم.

الوحدة عز الأمة:

ومن أجل الوصول الى مرحلة الشهادة والوحدة لابد من اقامة الصلاة، وايتاء الزكاة، كما يقول تعالى بعد الآيات السابقة: ﴿فَاَقِيمُوا الصَّلاَةَ وءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾.

فلابد من ان تتساقط كل القيم الزائفة، وتتهاوى كل الجدران التي تفصل بين ابناء الأمة، ولابد من ان تتحد النفوس والجهود، وتتوحد الأمة رغم الفوارق والحواجز.

نعم.. فالجهاد هو حصن الاستقلال، كما انه درع الوحدة. ولذلك جاء الجهاد في بداية الوحدة، وجاء الامر بالاعتصام بالله تعالى الذي هو اعتصام بالقيادة الرشيدة، وخروج من المحوريات والاقليميات والقوميات الزائفة، وتوحيد للجهود.

ثم يقول عز من قائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ليت هذه الآية تكتب في قلوبنا، وتحفر في نفوسنا، ويالیتنا نتخذ منها شعاراً لتحركنا الجديد في العالم الاسلامي.

اننا نتعرض اليوم لضغط دموي عنيف من قبل الاستكبار الجاهلي. فالاستكبار لا يمكن ان يهادننا ما دمنا غير مستعدين لمهادنته، ولان المستكبرين بدؤوا يشعرون اننا بدأنا نشكل خطراً على استغلالهم للشعوب، وابتزازهم لثرواتهم.

والطريق الوحيد الآن امامنا لكي نحول هذا الخطر الى فعل وعمل هو ان نتمسك بالوحدة، ونوفر في انفسنا ملامح الأمة الاسلامية الواحدة التي ذكرها القرآن الكريم في الآيات الكريمة السابقة، لان هذه الملامح هي التي تجعل منا كياناً مستقلاً مرهوب الجانب، وقادراً على افشال المؤامرات الاستكبارية ضده.. بل وقادراً على توجيه الضربة المهلكة الماحقة ضد الدوائر الاستكبارية في العالم، سواء تمثلت في الاستكبار نفسه ام في عملاء الاستكبار وأذنابه.

فلنعمل، ونبذل الجهود من أجل ان نكون أمة واحدة قادرة على العيش باستقلال، ولنوفر في انفسنا المزايا والخصائص السابقة التي هي الضمانة الوحيدة لحريتنا، وكرامتنا، واستقلالنا عن مخططات ومؤامرات الاستكبار العالمي.

معالم الأمة المقتـدرة

الأمـة المقتدرة لاتمثل أفراداً منقسـمين على انفسـهم، بل هي مجموعـة مـن الافراد يدعـم بعضهم بعضـاً، ويسـعون جميعهم من أجـل هدف مشـترك واحد. وعندمـا تكون الأمة سـائرة على الطريق الصحيح فان افرادها سيضعون في كل يوم حجراً جديداً على بنائهم، ومع مرور الزمن يتحول هذا البناء الى صرح شامخ.

العدل قوام الحيـاة:

والقـرآن الكريـم يريد منا ان نكـون أمة متعاونة فيمـا بينها تبني وتتقـدم، وهـو يبين قواعد بناء هذه الأمة، وكيـف تصبح قوية مقتدرة، وذلـك من خـلال تقديم توجيهات يقـف العدل فـي مقدمتها، والذي يمثـل الطرف الآخر للحق. فالعدل هو العمل بالحق، وان نعطي لكل انسـان حقه، إلاّ انه لايعني المسـاواة دائماً، لانها قد تسبب الظلم كما إذا ساوينا بين المحسن والمسيء. فالمفهوم الحقيقي للعدل ان نعطي لكل ذي حق حقه كما أمر به الله، وكما تقتضيه الفطرة الانسانية.

والعـدل هـو قوام الحيـاة، والمجتمع الذي يقوم على اسـاس

العدل هو مجتمع منسجم مع سنن الله في الكون. ونحن إذا أردنا ان نضرب مثلاً من عالمنا اليوم، فاننا نرى ان المجتمع البشري يقوم على اساس الظلم. فهناك اقلية تعيش افضل عيش، وتتمتع بكل متع الحياة، وتمتلك اكثر من ثلثي خيرات هذه الارض.. في حين ان الاغلبية الساحقة تعيش حالة الفقر، والحرمان..

وهكذا فان الظواهر تدل اليوم على ان العالم لايسير باتجاه العدل، ولذلك نرى ان مشاكله في حالة ازدياد مستمر. والحل الوحيد امام البشرية، هو انها إذا ارادت ان تعيش الراحة والسعادة بعيداً عن الحروب والمشاكل، فلا بد لها من ان تعيش تحت راية العدل الالهي. وهذا الحكم كما ينطبق على البشرية ككل، فانه يصدق ايضاً على أي تجمع آخر مهما كان صغيراً. فنحن إذا اردنا ان نبني مجتمعاً منسجماً وموحداً، فلابد من ان نقيمه على اساس العدالة، وان يكون حق كل انسان محفوظاً.

وبناء على ذلك فان العدل هو اساس الحضارة؛ أي ان قوتها تكمن في العدل، وضعفها ناجم من الظلم الذي يؤدي الى انهيارها عاجلاً ام آجلاً.

معالم الأمة المقتدرة:

وفي مجال العدل والاحسان يقول عز من قائل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾[1].

والملاحظ انه - تعالى - قد ذكر هنا مفهومين هما؛ العدل

(١) النحل: ٩٠.

والاحسان. فمستوى العدل ان تعطي الآخرين حقوقهم دون زيادة او نقصان، اما الاحسان فهو ان تعطيهم زيادة في حقهم بعد ان تأخذ من حقك.

ثم يقول سبحانه مشيراً الى مفهوم آخر: ﴿وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[1].

فالتجمع الاول والاساس هو تجمع الاسرة، والمجتمع الذي يعيش التهرؤ والاختلاف لايرجى له التقدم. وبناء على ذلك فان اول ما يجب علينا ان نقوم به، هو ان ننظم العلاقة العادلة بين اعضاء الاسرة الواحدة، ثم ننقل هذه العدالة الى المجتمع الكبير. فايتاء ذي القربى يعني ان تكون أيدينا مفتوحة ازاء من تربطنا به علاقة القرابة، وهذا مستوى أعلى من العدل، وأسمى من الاحسان.

ثم تتوالى بعد ذلك الارشادات القرآنية فيقول تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[2].

والفحشاء هي ان لا يلتزم الانسان بالعدالة بالنسبة الى نفسه، فهو لايعيش حالة التوازن في نفسه كانسان.

وعلى هذا فان تنظيم الحياة يقابل الفحشاء، والعدل في حياة الانسان هو ان يصوغ حياته على ضوء الأوامر الالهية فيعطي كل جانب من حياته، وكل بعد من ابعاد وجوده حقه. اما المنكر فيعني ان يتجاوز الانسان في الظلم نفسه ليسلب حقوق الآخرين، ويعتدي عليهم. وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن البغي، والعدوان

(١) النحل: ٩٠.
(٢) النحل: ٩٠.

على الآخرين.

فلنأخـذ بنظر الاعتبار هذا النظام الاجتماعي القائم على اساس العدل، والاحسان، وإيتاء ذي القربى؛ ولنحذر أشد الحذر من الظلم، والفوضى، وقيام المجتمع على اساس الفحشاء والمنكر والبغـي.

ثم يعلق سبحانه على تلك الارشادات قائلاً: ﴿**يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[1].

أي ان تلك الارشادات تمثل أموراً فطرية. فالله عز وجل اودع في قلب الانسان نوراً يعرف به ان العدل والاحسان والاهتمام بذوي القربـى هي صفـات اخلاقية حسـنة، ولكن الانسـان بحاجة الى من يذكره.

ومن ثم جاء في السياق القرآني الكريم: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾[2].

فنحـن يجـب ان نبنـي علاقتنـا مـع الآخريـن على اسـاس كلمة الشرف. فعلينا -إذن - ان نفي بالعهد، وان تكون كلمة الشرف هي محور علاقاتنا مع الآخرين، لكي نستطيع ان نحافظ على وحدتنا وتماسكنا.

معيار الحسـن والقبـح:

وفي هذا المجال علينا ان نسأل انفسنا: ماهو الأحسن، وما هو معيار الحسن والقبح لدينا؟

---

(١) النحل: ٩٠.
(٢) النحل: ٩١.

وللاجابة على هذا السؤال نقول: ان المقياس الرئيسي للحسن في مجال العلاقات الاجتماعي ان يكون دوري في التجمع الذي انتمي اليه اكثر من غيري. فليس من الصحيح ان يرى الواحد منا ان تجمعه لايعطيه حقه فيبدأ بنقضه بطريقة او بأخرى لكي يبنيه من جديد حسب تفكيره، فيكون حاله كحال تلك المرأة الخرقاء التي يحدثنا عنها القرآن الكريم قائلاً: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً**﴾[١].

ثم يقول تعالى: ﴿... **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أمة هِيَ أَرْبَى مِنْ أمة**﴾[٢].

أي ان التجمع الذي لايفي بعهده، فانه في الحقيقة لايفي باليمين الذي قطعه على نفسه، فيخشى ان يصبح الشخص الفلاني قائداً له، ويفكر كل واحد في ان يصبح هو القائد، فيعمد بذلك الى هدم البناء.

وعلينا ان نحذر في هذا المجال من ان نجعل لانفسنا قالباً ثم نطلب من الآخرين ان يدخلوا فيه. فالله سبحانه وتعالى يقول محذراً من هذا السلوك السلبي: ﴿**وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أمة وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ**﴾[٣].

فليس من واجبي ان احاسب الناس على ما في ضمائرهم،

(١) النحل: ٩٢.
(٢) النحل/ ٩٢.
(٣) النحل: ٩٣.

ونحن امامنا وظائف شرعية محددة من قبل الشرع المقدس علينا ان نلتزم بها. وهذا هو الطريق الوحيد للقضاء على الاختلافات.

عناصر القوة في الأمـم

ترى ماهي الحياة، وما هي أبرز ميزاتها؟

للجواب على هذا التسـاؤل المهم نضـرب مثلاً علّنا نفهم من خلالـه حقيقة الحيـاة، وحقيقة الأمـة الحية. لو أخذنا بـذرة صغيرة، ودسسناها في التراب، ثم تابعنا تطوراتها فسنجد انها سرعان ما تبدأ بالتحـرك لتجمع من حولها ما يفيدها في عملية النمو، وتتجنب مالا ينفعهـا. فتمتص من الماء قدراً محدوداً، ومن املاح الارض كذلك، ومن اشعة الشمس مقداراً مناسباً، وهكذا حتى تستوي شجرة باسقة، وافرة الظلال، يانعة الثمار...

الأمم الحية تنمو باستمرار:

ومثـل الحياة كمثل هذه البذرة، فحينمـا تدب الحياة في الأمة تدرك هذه الأمة انها يجب ان تنمو في اطار تطلعاتها المستقبلية لكي تصبـح قوية مقتـدرة. فمن طبيعـة الأمـم المقدامة التـي تتطلع دوما الى التقدم والحضارة، انها تهدف في الاسـاس الى النمو المسـتمر، والانتشـار الواسع. وهي حينما تضع هذا الهدف نصب عينيها، فانها

تبدأ عادة بالبحث عما ينفعها لتستثمره، وعما يضرها لتتجنبه.

وعلى سبيل المثال فانها تتوجه الى التأريخ لتأخذ منه ما يفيدها، وتترك ما يضرها. ففي التأريخ ايجابيات وسلبيات؛ ففيه سيرة الانبياء والصالحين، كما ان فيه ايضاً صور الطغاة المجرمين من امثال فرعون وهامان ونمرود وغيرهم ممن قتلوا النماذج الخيرة، وعاثوا في الارض الفساد.

وان النظرة الواقعية والموضوعية للتأريخ تمكننا من ان نميز بين الجوانب السلبية فيه، وبين الجوانب الايجابية. فنحن نتعمق مثلاً في التأريخ لنفتش عن لحظة من اللحظات المشرقة فيه، كلحظة عاشوراء - مثلاً - فنقف عندها طويلاً، متأملين فصولها بدقة. فنلاحظ في دائرة عاشوراء كلمات وشعارات قد اطلقت من جانب معسكر الامام الحسين عليه السلام وأخرى من جانب معسكر يزيد. إلاّ أن كلمات معدودة ظلت تدوّي في عالمنا، وتسري في عروق الاجيال؛ من مثل كلمة (هيهات منا الذلة) التي صرح بها الامام ابو عبد الله الحسين عليه السلام...

كلمات تبني:

ولاشك فان الكلمات التي ترسم منهاج البناء والحضارة هي التي خلدت، والامة الحية هي التي تبحث عن هذه الكلمات والمواقف والمناهج التي تمثل الجوانب الايجابية من التأريخ، والتي تسهم في صناعة الحضارة. وفي مقابل ذلك نرى الأمة التي تعيش الهزيمة والانتكاس تبحث دوماً عن الجوانب السلبية من

التأريخ، ولذلك نرى انها لاتنفصل عن واقعها المر.

وبالاضافـة الى ذلك فان الأمة الحية فـي حالة بحث دائم عن الجوانـب الايجابيـة في أية حضارة، لتطور هـذه الجوانب في ذاتها، مـن أجـل بلوغ أعلـى مرتبة في التقـدم والازدهار. هذا فـي حين اننا نرى الأمة المنهزمة داخلياً تقتبس من الحضارات الأخرى الجوانب الهامشية العديمة الجدوى.

الانبهـار آفة الاقتبـاس:

وفـي هذا الاطـار راح البعض ينبهر بكل مـا يصدر عن الرجل الاجنبي دون ان يعي ويميز بين الضار والنافع منه، حتى وصل الأمر بالبعـض الـى انه يصغـي لأية كلمـة منقولة عـن الغربييـن وكأنهـا الوحـي، بينما لا يعيـر أي اهتمام يذكر لقول يذكـر عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو عن الأئمة الطاهريـن عليهم السلام.

ان مثل هـؤلاء انبهـروا بالظاهر، ولم يعوا المحتوى بالشـكل المطلـوب، ولذلك فانهم سـيظلـون يعيشـون الخواء. في حين ان الأمـة الحيـة تبحث دائماً عن المحتـوى، والحكمـة، وقد جـاء في الحديث الشـريف عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحكمـة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها»[1]. وكذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «.. والحكمة ضالة المؤمن فليطلبها ولو في أيدي أهل الشر»[2].

(١) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ١٠٥ / رواية ٦٦.
(٢) بحار الأنوار / ج ٧٨ / ص ٣٨ / رواية ٩.

الاقتباس الايجابي:

لقد جاب المسلمون الاوائل الآفاق بحثاً عن آخر التطورات العلمية في الجانب الايجابي، وكان لذلك اثر بليغ في بناء حضارتهم التليدة. فلا يخفى ان قوة الحضارة الاسلامية انما جاءت في أحد فصولها نتيجة لاستيعابها سائر الحضارات، والاستفادة منها. والحضارة الاوربية هي الأخرى عمدت الى الانتفاع من الحضارات الأخرى، وخصوصاً الحضارة الاسلامية من خلال جمع أكبر قدر ممكن من تراثها الثقافي والفكري والعلمي وفي كافة المجالات. وفي هذا الصدد يذكر ان في المكتبات الغربية المعروفة ما يقرب من الفي كتاب ورسالة منسوبة الى جابر بن حيان الكوفي والتي كانت من إملاء الامام الصادق عليه السلام، علماً ان مكتبات العالم الاسلامي لاتملك من هذه المجموعة النفيسة سوى مائة كتاب؛ وكل ذلك يكشف لنا عن حقيقة، ان الحضارة الغربية قامت على اساس ايجابيات الحضارات الأخرى.

ومن كل ذلك نستنتج ان تقدم الأمم ورقيها نابعان من تتبعها لقضايا العالم المحيط بها من منظار ايجابي، ولذلك ينبغي علينا إذا ما اردنا ان نسمو في سماء الحضارة ان نكافح الجوانب السلبية في حياتنا، وان نأخذ بكل الجوانب الايجابية من حولنا، وان نبادر الى الابداع.

لنحذر التقليد الأعمى:

ويقف التقليد الاعمى على رأس الجوانب السلبية التي يجدر بنا ان نتخلص منها، إذا أصبح البعض يتهرب من كل ابداع بحجة

ان مسـيرته قائمة على تقليد الآخرين في كل شـيء. فهناك – مثلاً – مـن يقلد التراث، في حين اننا لابد ان نعرف ان في التراث ايجابيات وسـلبيات. لذلـك ينبغـي ان لا تكـون علاقتنـا بالتـراث فـي حدود التقديس، وانما بحدود الاهتمـام بالقضايا الايجابية. فعلينا ان نأخذ مـن الآخرين الأمور التي تفيدنـا في بناء كياننـا الحضاري، دون ان نقلدهم في نظرياتهم وسلوكياتهم بلا أدنـى تفحـص وادراك.

خبراء مقلّدون!

لقـد اثبتت بعض النظريات المعروفة في العالم فشـلها، إلاّ أن قسـماً مـن مجتمعاتنا ما يزال مصراً على السـير وفـق منهجها بحجة انهـا اثبتـت نجاحها سـابقاً، او انها مـا زالت تعيش في اجـواء دعاية النجـاح. وان مما يؤسـف له هـو ان اكثر خبراءنا ماهـم إلاّ مجموعة من المقلدين، ذلك لاننا لم نسـع الى بناء الحضارة، ولم نقم بحركة ذاتية داخلية تقودنا نحـو التقدم، وانما اعتمدنا على كل ماهو جاهز. فكانت النتيجة ان تحولت عقليتنا الى عقلية انبهار اما بالاولين، واما بالآخرين ممن يعاصروننا.

ونحن لانستطيع ان نتجاوز هذه المشكلة إلاّ من خلال تجاوز الاطـر الضيقـة التـي حكمنـا على انفسـنا بالعيـش في داخلهـا، الى الانطلاق والابداع.

وثمـة التفاتـة مهمة هنا تجدر الاشـارة اليها، وهـي ان الابداع شـيء، والبدعة شـيء آخر. فالبدعة تعني تغيير الديـن والقيم الثابتة، امـا الابـداع فيعني التطويـر. فمن أجل تطبيـق القوانيـن فاننا بحاجة

الى تطور، وفهم عقلي. والقرآن الكريم يحثنا على الأخذ بالأحسن من الأمور عندما يأمرنا قائلاً: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1].

التجربة الاوربية في مضمار الحضارة:

وعلى سبيل المثال فان أوروبا كانت تعيش في احد عصورها حالة الانقسامات الداخلية، حيث كانت الامارات الاقطاعية هي الحاكمة. فكانت في ايطاليا وحدها خمسمائة حكومة، وكانت هذه الاوضاع سبباً في انتشار الحروب والاعتداءات، حتى ابتدع رجالها فكرة القومية، فتمكنوا بذلك من القضاء على كثير من الانقسامات من خلال بث الروح الوطنية، والالتحام ببعض لتشكيل دولة كبيرة.

ونتيجة للتطورات، ودفعاً للمشكلات والازمات بادر الأوربيون الى تشكيل السوق الأوربية المشتركة، ثم الاتحاد الأوروبي كخطوة متقدمة للتأليف بين البلدان الأوروبية المقبلة خلال الاعوام القادمة على تأسيس (الولايات المتحدة الأوربية).

وهكذا فان الدول الاوربية تجاوزت مرحلة القومية والوطنية، ومن قبل ذلك تجاوزت مرحلة الاقطاع، وهي الآن مقبلة على تشكيل دولة موحدة كبيرة. اما نحن فمازلنا متمسكين حتى الآن بتقسيماتنا القديمة؛ فكل قطعة ارض لها حكم وعلم. فالى متى نبقى على هذا الحال دون ان نفكر في ان نوظف قوتنا الابداعية لتصحيح هذه الاوضاع المغلوطة؟!

(١) الزمر: ١٧-١٨.

سنن التحضر في القـرآن:

لقـد ربـط القـرآن الكريم في اكثـر من آيـة بين حقيقـة الهدى والضـلال، وبين القضايـا المعنوية والامثلة الحياتيـة، كقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ اِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾(١).

فهناك – إذن – سـنة الهية؛ فـإذا ماتت الارض بعث الله تعالى اليها بالسحب، لتنزل عليها الغيث ليكون وسيلة لاحيائها.

ثـم يتطرق القرآن الكريـم الى الحديث عن قضية الأمة، ويبين لنا كيف يمكنها ان تعيش في دائرة العز، وذلك في قوله تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيـدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّـهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً اِلَيْـهِ يَصْعَدُ الْكَلِـمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾(٢).

فالعـزة لاتكمـن فـي سـلطان الغرب او الشـرق، بـل ان العزة الحقيقيـة للـه عـز وجـل. وطريـق العـزة يتمثل فـي الكلمـة الطيبة، الناهضة، الايجابية التي تبعث على الحركة والحيوية.

العمل الصالح مقياس التقـدم:

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان العمل الصالح هو المقياس الحقيقي للتقدم والتطور وتحقيق الحضارة.

يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**

(١) فاطر: ٩.
(٢) فاطر: ١٠.

وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[١].

فالذين يعيشون الجانب السلبي دائماً، لايمكن ان يفلحوا في حياتهم ابداً، بل انهم يعيشون الانتكاسة تلو الأخرى حتى تؤول نهايتهم الى العذاب الشديد.

ومرة أخرى يعود القرآن ليحدثنا عن الحياة، والسنن الثابتة التي اودعها الله سبحانه فيها، والتي لايمكن ان تتغير. فيقول عز من قائل: **﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾**[٢].

ومن كل ذلك نستنتج ان المجتمع يجب ان يتحرك ويتطلع الى الامام، ويبحث عن عناصر القوة في تأريخه، وعن نقاط القوة في الحضارات الأخرى ليصنع من هذه العناصر والنقاط قوة ذاتية يتحرك بها نحو الامام.

---

(١) فاطر: ١٠.

(٢) فاطر: ١١.

عوامل نهـوض الأمـم

لـكل شـيء ظاهـر وجوهر، وهـذه قاعـدة تنطبق علـى جميع المظاهـــر والكائنـات في هـذا الوجود. والأمم ليسـت مسـتثناة من هـذه القاعـدة، فلكل أمـة مظهرها البادي للعيـان وجوهرها الباطن. ومظاهر الأمم هي هذه التي نشـاهدها، ونسـمع بها من مثل الثروات الطائلـة، والجيوش الجرارة، والاعلام الضخم، والاقتصاد المزدهر والعقـود والاتفاقيـات والتحالفـات المختلفـة ومـا الـى ذلـك مـن المظاهر البارزة.

ولكـن مـاذا عـن الجواهـر، وكيف تتسـنى لنـا معرفـة حقيقة المجتمعات والأمـم، وكيف نستطيع تحديد مسار حـركة هذه الأمم والمجتمعات، وهل ان مصيرها متوقف على تلك المظاهـــر؟؟

هنا يجيبنا القرآن الكريم، فيحدد جوهر الأمم، والقوة الحقيقية الفاعلة في داخلها، لا ما نلحظه من مظاهر القوى.

مقاييس جوهر الأمـم:

والمخبـر الحقيقي للأمم يتحدد طبقاً لما صـرح به كتاب الله

العزيز في مجموعة مفردات هي:

١ - الايمان؛ والمراد بالايمان تسليم القلب للرب. فمادام الرب تعالى هو الحق، فان الايمان يعني ايضاً تسليم القلب للحق، وتفاعله مع حقائق الكون الجوهرية الناصعة. فالبعض يزعم ان الايمان هو مجرد ترديد اللسان لعبارة التوحيد، في حين انه أبعد من ذلك وأعظم. فالايمان يعني ان يلج نور عظيم الى قلبك فيهتدي به الى عالم الحقائق الساطعة، وان تؤمن اولاً بالله جل وعلا. علماً ان دليل هذا الايمان هو الايمان برسالاته، وشرائعه، واحكامه، ومن ثم التسليم، والعمل بتلك الشرائع والاحكام الالهية، لان التنفيذ والعمل هما دليل حصول التسليم.

والتسليم يعني ان نؤدي ونقيم ما أمرنا الله سبحانه به عن طريق كتبه ورسالاته، اداءاً واقامة كاملة. وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لانسبن الاسلام نسبة لاينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلاّ بمثل ذلك: ان الاسلام هو التسليم والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الاقرار، والاقرار هو العمل، والعمل هو الأداء»[1]. أي ان تسلّم بقلبك، وتصدّق بلسانك، وتؤدّي بجوارحك.

وفي الحقيقة فان هذه الكلمة مستوحاة من حديث امامنا الصادق عليه السلام الذي يقول فيه: «الايمان اقرار باللسان، وعقد بالقلب، وعمل بالاركان»[2]، وفي حديث آخر يقول نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) اصول الكافي / ج ٢ / ص ٤٥ / رواية ١.
(٢) بحار الأنوار / ج ٥ / ص ٣٢ / رواية ٣٩.

«ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكنّ الايمان ما خلص في القلب وصدّقه الاعمال»[١].

ولذلك نجد ان المؤمنين بالمعنى الذي اتضح لنا يمثلون قلة في المجتمع، والقرآن الكريم يؤكد على هذا الواقع الاجتماعي في قوله: ﴿**وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[٢].

وبناء على ذلك فان الايمان ليس مجرد كلمة تنطق وحسب، فالايمان هذا المستوى الرفيع الراقي من الانسانية بحاجة الى مسيرة كاملة. وعلى سبيل المثال فان النبي ابراهيم الخليل عليه السلام لم يتحول الى انسان مؤمن إلاّ بعد ان اجتاز طريقاً طويلاً وصعباً، ولذلك فان الله عز وجل عندما يثني على انبيائه ورسله فانه يصفهم بالصلاح والعبودية، فيقول تعالى عن كل منهم: ﴿**وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[٣]. أي ان هذا الانسان الذي حُمِّل عبىء النبوة قد سما وارتقى حتى بلغ مابلغ من الصلاح والايمان والعبودية لله تعالى.

ولذلك لم يكن الصلاح والايمان بالسهولة التي نتصورها، فهما يمثلان قمة الكمال السامقة التي لايصل اليها إلاّ القلة من الناس. وإذا فرضنا ان البعض منهم بلغ مبلغ الايمان، فانه سرعان ما يتهاوى – في الغالب – عن تلك القمة إلاّ القليل ممن أنعم الله تعالى عليهم، ولذلك فقد قال سبحانه: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[٤].

---

(١) بحار الأنوار / ج ٦٩ / ص ٧٢ / رواية ٢٦.
(٢) يوسف: ١٠٣.
(٣) الانبياء: ٨٦.
(٤) سبأ: ١٣.

وهذا هو ديدن القرآن، فليست فيه اشارة ايجابية الى الكثرة. فهو لايتحدث عن الأكثرية عندما يطري ويمدح، بل يشير الى القلة القليلة. فهو عندما يشير الى الأكثرية فان إشارته هذه هي في الغالب إشارة سلبية كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِ كَارِهُونَ﴾[١].

والسبب في ذلك نجده ونلمسه في الواقع الاجتماعي المعاش، وهو يشمل جميع أصعدة الحياة من حيث سلم الرقي في كل صعيد. فالذين يبلغون قمم العلم، سواء على صعيد العقيدة او العلوم الطبيعية والانسانية المختلفة، ربما لايتجاوزون عدد الاصابع في المجتمعات الانسانية المختلفة.

وهذه هي سمة سائدة في الوجود والحياة، فالاشياء الثمينة والمفضلة يتّصف وجودها بالندرة والقلة.

٢- الالتزام المسؤول؛ اي التصدي للمسؤولية، وهو مانقرأ الاشارة اليه في السياق القرآني الكريم الذي يقول: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٢].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسا فريضتين منفصلتين عن الايمان، بل هما ملازمتان له. فالانسان المؤمن لايكتفي ان يكون مؤمناً في حدود ذاته وحسب فيركن الى الراحة والجلوس دون ان يكون له شأن بغيره من اخوته.

كلا.. ان الانسان المؤمن هو طاقة متفجرة وتحركه من اجل

(١) المؤمنون: ٧٠.
(٢) آل عمران: ١١٠.

دعـوة النـاس الى الايمـان والصلاح فـلا يهدأ، ولايقر لـه قرار حتى يبلـغ ما بلغه من الايمان، وما اعتقـده من عقيدة لغيره في مجتمعه او المجتمعـات الأخرى.. ذلك لان قلبه متوهج بالايمان، وهو بطبيعته يمثـل كتلة متفجرة تشـع ضياء وحـرارة أينما وضعتهـا، فكيف به إذا رأى واقعاً فاسداً متردياً؟

وعلـى هـذا فـان التصـدي للمسـؤولية، وتحمـل اعبائها هما السـمة الثانية من سـمات ابناء الأمة الفاعلة، وإذا فقدت هذه السـمة فان الأمة سـتصاب بمـا يعرضها للهزيمة والدمـار والاندثار. فالامة التي تفقد الايمان والروح المسـؤولة تصـاب بنقص المناعة الذاتية، فتكون عرضة للانهيار والسـقوط لأدنى مشـكلة او عارض خارجي يداهم كيانها.

والقـرآن الكريـم يوضـح فـي صريـح آياتـه هذين الشـرطين الاساسيين لفاعلية وتقدم الأمة ورقيها نحو الكمال، ومن ذلك يتبين ان المجتمـع المؤمن هو ذلك المجتمـع الفاعل المتكامل المتحدي والقـادر علـى مقاومـة الهـزات ومجابهـة العواصف. ولكـي يكون كذلـك لابـد له من الايمان الحقيقي بالله تعالى، ورسـالاته، وسـننه الكونية، والتصدي للمسؤولية، كما يقول الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

والامة التـي تفتقر الى هاتين الخصوصيتين الاساسـيتين لابد لهـا من ان تنتظـر النهاية الذليلة المخزية لها، فتصبـح متمزقة متفرقة ينهبها ويسرقها كل من هب ودب، وإن كانت في ظاهرها قوية متينة. والقرآن الكريم يعاتب هذه الأمة ويدعوها الى الايمان والصلاح بعد

ان يشير الى سيرتها الأولى في قوله:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾[1].

ثم يشير القرآن بعد ذلك الى اهل الكتاب، ويؤكد لهم ضرورة الايمان بالرسالات واستمرارها في قوله:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

فهؤلاء عندما نزل عليهم الكتاب، وعرضت عليهم الرسالة لم يكونوا قد ارتقوا الى مستواهما. فالذين يوفقون للوصول الى هذا المستوى من الايمان والرقي، انما ينالون ذلك عندما يتفاعلون قلباً وروحاً مع الداعي الى الله تعالى، كأن يكون قرآناً، او حديثاً شريفاً، او كلاماً لعالم. وعلى سبيل المثال فان الواحد منهم عندما يحضر درساً في التفسير، فانه لايفهم هذا التفسير عند حدود الدرس فحسب، بل انه يتوسع أكثر من المفسر نفسه.

ومثل هؤلاء -كما سبقت الاشارة- يمثلون فئة قليلة في المجتمع، وفي الآية الكريمة تأكيد لهذة الحقيقة.

ثم يستمر السياق القرآني ليتحدث عن اثر الفاسقين على المؤمنين في المجتمع، فينفي ان يكون لهم ضرر إلاّ في اطار الاذى. فهم لايستطيعون ان يؤثروا على نفوس المؤمنين وقلوبهم،

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) آل عمران: ١١٠.

ولايمكن ان ينالوا من ايمانهم؛ اللهم إلاّ مايصيب المؤمنين من الاذى بسببهم كما يؤكد ذلك سبحانه في قوله: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ**﴾[1].

فالامة الملتزمة المؤمنة بكتاب الله ورسالاته لا ريب انها ستهزم الأمة الفاسقة، فلا بد من ان يكتب الذل والمسكنة على الفاسقين في الدنيا قبل الآخرة.

وحالة الذلة والمسكنة هذه تستتبع عادة التبعية والخضوع والعبودية للغير. فالذين تضرب عليهم الذلة والمسكنة يغدون اذلاء اينما ولوا وجوههم ماداموا لايؤمنون برسالات الله تبارك وتعالى، ولايعملون بمسؤولياتهم الايمانية، ولذلك يقول عز من قائل عن اليهود:

﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾[2].

والكفران هنا يتمثل في انهم لم يؤمنوا بالرسالات السماوية، حيث حرفوا التوراة ولم يؤمنوا بالانجيل، ومن ثم رفضوا القرآن ورسالة الرسول الخاتم ﷺ وراحوا يحاربونها، ويبذلون الأموال الطائلة من اجل هذه المحاربة، والتآمر عليها. فهم يشاهدون

(١) آل عمران: ١١١.
(٢) آل عمران: ١١٢.

الحقائق التاريخية بام اعينهم لكنهم ينكرونها، ويقتلون الدعاة اليها من الانبياء ظلماً وعدواناً. وهذا هو ديدنهم مع الرسالات الالهية، إلاّ فئة قليلة للغاية منهم يعبر عنها القرآن الكريم بالامة القائمة، فيبين تعالى بعد الاستثناء:

﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أمة قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَآءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1].

ففي هذا المجتمع المنحط، والامة الفاسدة توجد مجموعة صغيرة صالحة تتلوا القرآن في جوف الليل، وتسجد لله تعالى شكراً له، وهؤلاء مؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. والله جل جلاله عندما ينزل العذاب على أمة كافرة فاسدة فان هذا العذاب لايشمل القلة الصالحة فيهم.

ومن هنا يتبين لنا ان المسؤولية ذات اطارين هما؛ المسؤولية في اطار الأمة، والمسؤولية في اطار الفرد. وهذا يعني ان المسؤولية لاتسقط عن الفرد كفرد ان تنصلت الغالبية في المجتمع عن حمل اعباء المسؤولية. فليس للانسان ان ينحرف بذريعة ان الأمة سائرة في سبيل الانحراف والاعوجاج، فلابد للفرد من ان يتحمل مسؤوليته وان تملص المجتمع من حمل اعباء المسؤولية الجماعية. فكلا المسؤوليتان قائمتان، ولكن انعدام احداهما لايعني بالضرورة انعدام الأخرى.

فليصلح الانسان نفسه، وليتحمل ويؤد مسؤولياته، والله

(١) آل عمران: ١١٣.

سبحانه وتعالى يتكفل بدوره بانقاذه مما يصيب المجتمع والامة الفاسدة من عواقب فسادها. وعلى سبيل المثال فان نوحاً عليه السلام واتباعه لم يشملهم الطوفان، فنجوا بسفينتهم، وورثوا الارض بعد ان غرقت كلها، وهلك الكافرون والعصاة بسبب ذلك الطوفان العظيم. فالله تقدست اسماؤه يأخذ المذنب فقط حين العذاب والانتقام، اما الانسان المؤمن فلابد من ان يجد لنفسه مخرجاً وسبيلاً يقيه شر العذاب، وهو ذلك المؤمن الحقيقي الذي يتحمل مسؤولياته، ويعمل بها كما يقول تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[1].

ثم يمضي السياق ليؤكد على حقيقة الجزاء بالاعمال بما يلي: ﴿**وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**﴾[2].

فالله سبحانه لايضيع عنده عمل عامل؛ فالذي يفعل الخير والصالحات - سواء عاش في مجتمع صالح او طالح - فانه سيجد ثوابه كاملاً عند الله، وينال جزاء عمله دون ان يضيع أجره. فهو سبحانه أعلم بالمتقين الذين يستقيمون، ويثبتون على طول الخط، ولا يسقطهم الانحراف والفساد الاجتماعيان، وهذه سنة الهية ثابتة.

ومن ذلك كله نستشف حقيقة ان الانسان المؤمن -كفرد- بامكانه ان يترك من خلال تحمل مسؤولياته أثره في الفعل الاجتماعي، والمسار التاريخي للامة، وبامكانه ان يصبح بمفرده

(١) آل عمران: ١١٤.
(٢) آل عمران: ١١٥.

أمـة. فعليه – إذن – ان يعرف قدر نفسه، وقيمتها ليسمو بها في سلم الكمال والرفعة. فليعرف كل منا قيمة نفسه بما آتاه الله سبحانه، لا بما يقوله الناس. فالنبي او الولي او العالم او الرسالي المجاهد لاينقص مـن قدره مـا يقوله الناس عنه من الكلام السـاخر الذي يحاولون من خلاله النيل من شخصيته.

وعلى سـبيل المثال فان المشـركين من اهل مكـة وجهوا الى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم في خلال سـني الدعوة الاولى مختلف النعوت والاتهامـات الظالمة، ولكن ذلك لم يكن لينال من شـخصيته صلى الله عليه وآله وسلم قيد انملة، ولم يترك اثره عليه في زعزعة ارادته وثباته واستقامته على الطريق الرسـالي، بل كان يزيده اصراراً على المضي والاستمرار في دعوتـه. فلقـد نعتوه مرّة بانه سـاحر، وأخرى بانه شـاعر، ومجنون.. ولكن اين صاروا هم، واين صارت نعوتهم، ثم الى اي مسـتوى بلغه صلى الله عليه وآله وسلم مـن العلـو والمجد، والى اي مـدى وآفاق بلغ نـور دعوته؟؟ ويكفيه فخراً انه صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكر اسـمه المبارك وجبت الصلاة عليه وعلـى آلـه، ولو كان قد ابـه بكلام الناس ولغوهم لـكان قد ركن الى زاوية في بيته، وترك الدعوة واعباءها، ولما نال تلك المنزلة الرفيعة، والتجليل العظيم في قلب كل انسان مؤمن.

وأنت أيها المؤمن قد آمنت عندما اتصلت بالقرآن، واستوحيت مـن الوحي الالهي، وتمسـكت بهذا الحبل المتيـن؛ اي القرآن الذي هو حبل ممدود بين الله سـبحانه وبين عباده المؤمنين، فهل وجدت أفضل من التمسك والالتزام به؟

ان الانسـان إذا ما ازداد تمسـكه وثباته واستقامته على الطريق

الالهي، فانه سيظل يرتقي حتى يبلغ تلك الدرجة العظيمة التي يرسمها لنا الحديث القدسي المعروف: «عبدي اطعني اجعلك مثلي، أنا حي لا أمـوت، أجعلـك حياً لا تموت، أنـا غنياً لا أفتقـر، أجعلك غنياً لا تفتقر، أنا مهما أشاء يكون، أجعلك مهما تشاء يكون»[1].

ومن هنـا لابد من ان نعرف وندرك مسـؤولياتنا كافراد، فضلاً عنها كتجمعات وتنظيمات وحركات على صعيد الأمة.

السبيل الى النهوض:

فلابـد - إذن - مـن ان يكـون هناك سـبيل للنهـوض بالامة، وهـو ما نجده من خـلال النهوض بذات الفرد مـادام جزء لايتجـزأ من الأمة، فكيف - يا ترى - يتم هذا النهوض؟

للاجابـة على هذا السـؤال نقول انه يتم من خـلال توفير ثلاثة شروط هي:

١- التكامل الروحي:

فكل انسان مؤمن يحتاج لبناء شخصيته الايمانية الى التكامل، والتكامل هو ان يبلغ الواحد منا قمة التسـامي التي توصله الى الجنة مـادام هـدف المؤمن هو رضا الله تعالى، والخـلاص من نار جهنم، والفوز بجنة الخلد.

وعندمـا نطالـع القـرآن الكريـم ونتصفـح الاحاديـث النبوية والروايات الشـريفة عن أهل البيت عليهم السلام يتضح لنا ان شـرط دخول

(١) كلمة الله، ص ١٤٠.

الجنـة هو ان ترجح كفة الاعمال الصالحة في ميزان القيامة على كفة السيئات.

ولعل سـبيل الجهاد هو اقصر الطـرق التي توصل المؤمن الى هدفه الاخروي، كما يشير الى ذلك سبحانه في قوله: ﴿**إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً**﴾[1].

ومـن شـروط التكامـل الروحـي ان يتطهـر قلـب المؤمن من الصفات والعوامل السـلبية في الاخلاق والسـلوك الاجتماعي؛ كأن يطرد الحسد من قلبه، ويبتعد عن الاحقاد، ويميت الانانيات وما الى ذلك من الصفات السيئة. فكل واحدة من هذه الصفات والعوامل قد تكون سبباً في سقوط الانسان وحرمانه من جنات النعيم.

٢- التكامل العميق:

وهو ان يستخدم الانسان كل ما لديه من الطاقات والمواهب، ويوظفها في خدمة قضيته، فانه مسـؤول غداً امام الله عز وجل إذا ما لم يستخدم ما اعطاه من هذه المواهب كسلاح لمقارعة الطغاة الذين يضطهدونه ويضطهدون شعبه.

٣- التكامل التنظيمي:

وهـو ان يتعاون الافراد في المجتمع على العمل على الصعيد الاجتماعي. فالقرآن الكريم يقول: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا**

(١) التوبة: ١١١.

﴿تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[١].

ونحن كامة اسلامية نتبع الرسول ﷺ الذي هو امامنا وقائدنا، عندما نجتمع ونتعاون فاننا سنشكل قوة لاتضاهيها قوة أخرى. فالله سبحانه عندما خلق الناس مختلفين في الوانهم واشكالهم ومواهبهم ونفوسهم، فانه دعاهم في نفس الوقت الى التعاون والتآزر فيما بينهم ليكمـل بعضهم البعض، وليسـفر عن اجتماعهـم وتعاونهم محصلة قوة منسجمة فاعلة تسير

بالمجتمع نحو التطور والرقي، وتحميه من مخاطر الاعداء.

وعلـى هذا فلابـد من ان نخلق هـذه التجمعـات والتنظيمات ومختلف التشكيلات الجماعية الفاعلة، ومن الضروري -ايضاً- ان نربي انفسـنا على التلاحم، والاتحاد، والانسجام.. فهي الحالة التي تخلق الأمة القوية الرصينة.

وإذا ما استطعنا ان نطور انفسنا من خلال تلك الشروط الثلاثة وهـي (التكامل الروحي) و (التكامل العميق) و (التكامل التنظيمي) فاننـا سـنختصر الزمن في مسـيرتنا التكامليـة الحضارية، وسـيكون بامكاننا ان نحول كياننا الى سلاح حاسم ضد الطغاة.

ولذلـك يجـب الاعتمـاد علـى انفسـنا كأفـراد وتنظيمات في العمل على انقاذ انفسنا ومجتمعاتنا مما نحن عليه من الظلم والدمار والاوضاع المؤلمة التي نعيشـها. فلابد من ان نتحمل مسؤولياتنا في تحريـر بلداننا، وعلـى كل واحد منـا ان يتحمل مسـؤوليته، ويدخل

(١) المائدة: ٢.

الميدان، ويؤدي دوره بنفسه. وليعمل الجميع على تنمية مواهبهم، وتعزيز وتقوية تنظيماتهم ليرتفعوا بذلك الى مستوى التحدي.

ولنعلم ان الكثير من مظاهر التقدم الحضاري اوجدها افراد قرروا ان يوظفوا مواهبهم وينموها، فتقدموا وغيّروا مجرى التاريخ ووجه الحضارة، ولعل في الانبياء العظام، والاولياء أعظم الدروس والعبر، وخير القدوات لنا في هذا السبيل.

كيف نكون خير أمـة؟

جميـع القضايـا والحوادث التـي تقـع في العالم الاسـلامي تتصـل اتصالاً وثيقاً بالآيـات القرآنية، وخصوصاً تلك الآيات التـي تعتبر الأمة الاسـلامية خير أمة اخرجت للناس؛ اي ان البشـريـة لابد ان تنتفع من بركات هذه الأمة، فهي لم تخرج لنفسـها. فالمسـلمون عنـد بعثـة الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم لـم يعملـوا قـط مـن أجـل ذواتهـم وقضاياهـم، بل كانوا يعملـون مـن أجل الناس جميعـاً. ولذلك فان هذه الأمـة وبعـد ان تشـكلت في شبه الجزيرة العربيـة بدأت تنتشر، وكلما دخلت بلداً وفتحت أرضاً نشرت فيهما الخير والبركة والحرية والعدالة.. حتى دخل الناس في دين الله أفواجـاً في فتـرة قياسيـة.

أمة أخرجت للناس:

وعلـى هذا فان هذه الأمة انما اخرجـت للناس. ولكن القرآن الكريـم عندمـا يحدثنـا عن هـذه الصفة والميـزة في المسـلمين فانه لايتـرك الحديث مطلقاً، بل يقيده بان سـبب تمتعهم بهذه الميزة انما هـو أمرهـم بالمعروف، ونهيهم عـن المنكر. فالمسـلمون انما كانوا

خيراً وبركة لانهم كانوا يدافعون عن القيم الحقة، ولانهم كانوا ينشرون العدالة في العالم، وكانوا يريدون للناس الرفاه والسعادة، ويقاومون الظلم والطغيان والبغي والمنكر.. وبالتالي فقد كانوا أمة جاءت من اجل البشرية.

وهذه الصفات هي الصفات المثلى التي جعلت الأمة الاسلامية أمة رائدة في الارض، لاتحافظ على القيم في مجتمعها فحسب، وانما تنشرها في ربوع الارض. فقد كانت تنشر العلم، والعدالة، ونور الهدى الى أبعد نقطة في الارض.

وللاسف فان هذه الأمة قد فقدت اليوم هذه الميزة، ولانها فقدتها فقد اصبحت أمة ذليلة مقسمة، وهذا هو سبب كل ما يجري علينا. فنحن قد تركنا جانباً فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

الذنوب تسلب النعم:

وليس ثمة شك في ان الجريمة تكون في البداية نطفة ثم تتحول الى غول، وعلينا ان نقضي على هذه الجريمة قبل استفحالها، لانها إن كبرت وتعاظمت فسوف لن يكون بمقدورنا استئصالها. ولذلك يقول عز من قائل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

فإذا ما رأينا نعمة سلبت فلابد ان نعرف ان هناك ذنباً قد

(١) الرعد: ١١.

ارتكب، وخطيئة اقترفت حتى زالت تلك النعمة.

فالحريـة والأمن والكرامة والاسـتقرار كل ذلـك هو نعمة من الله تعالى، ولكننا إذا لم نمسـك بيد المجرمين، وتركناهم يشـكلون العصابات حتى يصلوا الى السـلطة، فأن الله تبارك وتعالى سيسـلط علينـا هؤلاء المجرمين ليسـلبوا منا كل تلك النعـم. ولذلك جاء في الحديـث الشـريـف عـن الامـام الرضـا عليه السلام يقول فيـه: «كلّما أحدث العباد من الذنوب مالم يكونوا يعملون أحدث لهم من البلاء مالم يكونوا يعرفون»[1].

فكل ذنب جديد لابد ان يكون وراءه بلاء جديد.

حتى نكون خير أمة:

وعلـى هذا فاننـا عندما ندافع عـن ديننا وقيمنا فـان الله تعالى سـوف يؤيدنـا، امـا إذا تخاذلنا ولذنا بالسـكوت فالويل لنـا من ظلم الطغـاة وممارسـاتهم الاجرامية. ونحـن إذا ما اردنـا ان نغيّر مجرى التأريـخ فلابـد ان نغيّـر ذواتنـا، واسـلوب تحركنـا، ومواقفنـا. فـان جاهدنـا فنعـم العمـل، وإن لم نسـتطع فلنؤيـد المجاهديـن بالمال، والكلمة الطيبة، والتشـجيع.. وإذا رأينا شـاباً يتوجـه الى الجهاد فان علينـا ان لانخذله، وإذا رأينا حركة رسـالية مؤمنة عاملة في السـاحة فلنقـدم لها العون، فان لم نسـتطع ان ننظم إليهـا فلنقدم إليها الخدمة بالقلم والتشجيع وبكل وسيلة ممكنة.

ولقـد أمرنا القرآن الكريـم بالجهاد باموالنا وانفسـنا. علماً ان

(١) بحار الأنوار / ج ٧٣ / ص ٣٥٤ / رواية ٥٨.

الجهاد ليس كله حملاً للسيف والبندقية، بل يشمل ايضاً تحركنا في المساجد، وحضورنا في الجلسات والمجالس.. فإذا ما سمعت ان فاتحة لشهيد ستقام ثم خرجت من منزلك لحضور هذه الفاتحة قربة الى الله تعالى وابتغاء لمرضاته، او ذهبت الى حيث يجتمع الناس حول قبور الشهداء فان مثل هذه الاعمال التي تبدو بسيطة في ظاهرها من شأنها ان تؤيد مسيرتنا وتخدمها.

وهكذا فان طريقنا الوحيد الى تحرير بلداننا هو ان نغيّر انفسنا، ونحررها من اغلال الجمود، والغفلة، والتنابز بالالقاب، وكل الصفات السلبية، وسنرى حينئذ كيف ستحرر اوطاننا وشعوبنا من عنت الطغاة، وكيف نكون خير أمة اخرجت للناس.

وكما أرى فان مؤامرات الحكومات الطاغية المتسلطة على رقاب المسلمين سوف لايكتب لها النجاح، لان عوامل النجاح ليست متوافرة لها، لسبب واحد يتلخص في ان المسلمين بدؤوا اليوم يعون، ويبصرون الحقائق ببصائر الايمان. فتلك الشعارات الوطنية والقومية والاقليمية ذابت وتلاشت، وهناك الآن شعار واحد هو شعار الأمة الاسلامية الواحدة.

على ان الأمر سوف لايقتصر على هذا الحد، فأنا اتوقع حدوث اكثر من ذلك خلال الاعوام القليلة القادمة. فالشواهد تشير الى ان اكثر من بلد سينعم بنور الاسلام، وكل ذلك هو دليل على اليقظة الشاملة في البلدان الاسلامية.

وتأسيساً على ما سبق فان علينا ان نعود الى آفاق ديننا، والى بصائره، وان نكوّن الأمة التي أرادها الله عز وجل خير أمة اخرجت

للنـاس مـن خلال الأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكـر، كما يقول القرآن الكريم:

﴿كُنْتُمْ خَيْـرَ أمة أُخْرِجَتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

(١) آل عمران: ١١٠.

مسؤوليـة الأمة تـجاه الطليعة المؤمنة

الثفافة الفاسدة هي تبرير للوضع الاجتماعي الفاسد، وتكريس له. ويبقى الانسان الذي خلق من ضعف محكوماً بأمرين من الصعب عليه التخلص منهما؛ الواقع المتخلف، والثقافة الفاسـدة. فأن تحرر مـن ضغط الواقع السـيء، ابتلي بتلك الثقافـة التبريرية التي هي نتاج هذا الواقع، والعكس صحيح.

هدف الرسالات الالهية:

ولقـد جـاء انبيـاء اللـه عليهم السلام برسـالاتهم مـن اجل فـك الحصار عـن الانسـان، لكي لا يظـل مضغوطاً عليـه بين مطرقـة الثقافة الفاسـدة وسـندان الوضع الاجتماعي الفاسـد. ومما يزيد الطين بلـة ان كثيراً من الناس لايدركون دور الثقافة السلبي في حياتهم، ولايعلمون ان افكارهم واقوالهم هي جزء من سلوكهم، وبالتالي فأنهم سيحاسبون على سلوكهم هذا، لانه المسؤول عن كثير من مشاكلهم، واوضاعهم المنحرفة.

أفكـار تبريرية:

ومن ضمن الافكار التبريرية الشـائعة تلـك الفكرة التي تروّج

فـي بلادنا اليـوم عبر أجهزة مختلفة، والقائلة بأن على المسـلمين ان يتجنبوا السياسة.

ونحن نرى البعض يعلن عن هذه الفكرة بصراحة، ويحاول ان يبررها بمجموعة من الشواهد الواهية، ومنهم اولئك الذين يحاربون المجاهديـن العامليـن، ويحاولـون ان ينالوا منهم لسـبب او لآخر. فتراهم يتجاهلون المفاسد الاجتماعية القائمة، والسلطات الفاسدة، وما يواجههم من مخاطر حضارية، ليسعوا من أجل اشاعـة الاقاويـل والاراجيـف حـول الطليعـة الرسـالية مـن العامليـن فـي السـاحة، ويصنعـون من القضايـا الصغيرة او حتى من الاوهام قضايا كبيرة، وتهماً يلصقونها بالمجاهديـن في سبيـل الله عز وجـل.

ومثل هؤلاء سوف يحاسبهم الخالق يوم القيامة حساباً عسيراً على موقفهم هذا. وبقدر مايكون الانسان الذي يتهمونه عظيماً، فان جريمتهم عند الله سـتكون عظيمة بنفس المقـدار، كما يقول تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1].

وهنـاك فكـرة باطلـة أخـرى يتشـبث بهـا وينشـرها اولئـك المرجفـون، وهـي ان كثيـراً منهم يحسـبون ان الديـن والايمان هما مجـرد اعمـال روتينية، علينا ان نقوم بها بقدر ماتسـمح به الاوضاع، وتقرّه السلطات الحاكمة التي يعتبرونها سلطات شرعية، غافلين عن انهم يرتكبون في هذه الحالة ذنبين؛ الاول هو خضوعهم للطاغوت، والثاني اعترافهم به.

---

(١) النور: ١٥.

ومن المعلوم ان الخضوع للطاغوت هو شرك خفي، في حين ان الاعتراف بشـرعيته شـرك ظاهر، ومخالفة صريحة لشهادة «لا اله إلاّ الله». والله سـبحانه وتعالى يغفر جميع الذنوب إلاّ ان يشـرك به، لان الشرك هو ذنب لايمكن ان يغفر أبداً.

وهـؤلاء انمـا يقعون في هـذا الذنـب العظيم عندمـا يعتبرون الذيـن يخالفـون القوانين التـي وضعتها السـلطات الجائرة مجرمين ومخربيـن. وهـذه الظاهـرة شـائعة – للأسـف الشـديد – في بعض بلداننا، وبين بعض الشرائح الاجتماعية. ونحن نسأل هؤلاء قائلين: كيف تعتبـرون اولئك الذين يخالفون قانوناً ظالماً وضعه الطاغوت، ولـم ينـزل بـه الله تعالـى من سـلطان مجرميـن، وكيف تسـول لكم انفسكم ان تحكموا بغير ما انزل الله؟؟

ان اللـه تبارك وتعالى يصـف اولئك الذين لا يحكمـون بما انزل بانهم كافرون، وفاسقـون، وظالمـون، لان الشرعيـة لأحكام الله فقـط.

والأخطر من ذلك هو ان البعض يعتقد ان الدين هو ما تسـمح بـه السـلطات الفاسـدة فحسـب، وماعدا ذلـك فليس مـن الدين في شـيء، فيتحول الدين عند هـؤلاء الى عبادة للطاغوت، وخضوع لما تأمر به السلطات الحاكمة!

الموقف القرآني:

والله عز وجل يحدد في القرآن الحكيم موقفه الصارم، والحاسم من هذه الفئة من الناس فيقول: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُـورَةٌ فَـإِذَآ أُنزِلَـتْ سُـورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِـرَ فِيهَا الْقِتَـالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِـي قُلُوبِهِم**

مَرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾[١].

والكلام هنا موجّه الى الذين يدّعون الاسلام والايمان، ويعربون عن استعدادهم لطاعة الله، واتباع اوأمره وهم في حالة السلم والامن، حتى إذا أمرهم الله تعالى بأمر فيه شيء من الصعوبة والمشقّة تغير موقفهم؛ فأن كان الامر بالقتال ترى الخوف يسيطر عليهم، ويفقدهم القدرة على التفكير، ولسان حالهم يقول: ان الدين الذي يأمرنا بالثورة على السلطات الطاغية، ويجعلنا نتعرض الى السجن، والتعذيب، والاعدام لانريده. فيبدؤون على أثر ذلك بالكفر والارتداد، كما يؤكد على ذلك الخالق عز وجل في قوله: ﴿**طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ**﴾[٢].

ومن هذه الآية نستنتج ان الناس يجب ان تكون حياتهم قائمة على اساس الطاعة والتسليم، وان ينبذوا جانبا الثقافة التبريرية ليلتزموا بدلاً منها بالثقافة الرسالية؛ ثقافة العمل، والتضحية، والتوجيه، والاصلاح.. لا ثقافة التخاذل، والانهزامية وخصوصاً في حالات الشدة.

وعلينا ان نعلم ان المستبقل لتلك الأمة التي تتحدى الظروف المتأزمة في الساعات الحرجة والحاسمة من حياتها، اما تلك الأمة التي تثبط عزيمة ابنائها في اللحظات المصيرية فأن مآلها سيكون الى الفشل والخسران، كما يشير الى ذلك قوله عز من قائل: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾[٣].

(١) محمد: ٢٠.
(٢) محمد: ٢١.
(٣) محمد: ٢٢.

وبناء على ذلك فان ترك الدين يعني التجزؤ والفساد، وبالتالي الهـلاك والدمـار.. فعلينـا ان لا ننظر الى هـذه المهلـة القصيرة التي اعطانـا الله إياها فـي هذه الدنيا، بل يجب ان ننظر الى ما هو أبعد من ذلـك. فتـرك الدين يعني ترك كل ما يمكن ان يكـون خيراً فيما يتعلق بالمستقبل.

كتاب الابطال المؤمنين:

ثـم شـدد ربنا عـز وجـل اللـوم والتقريع علـى اولئـك الذين لايتدبرون في القرآن في قوله: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**﴾[1].

وللأسـف الشـديد فـان الذكـر الحكيـم أصبح محجوبـاً عن المسـلمين، بسـبب الاقفال التي وضعوها علـى قلوبهم، انطلاقاً من الحـرص على الحيـاة والجبن. في حين ان القـرآن الكريم هو كتاب الابطـال المؤمنيـن، ولا يمكن ان يفهمه المتـرددون المرتابون. فهو لا يـدرك إلاّ بقلـوب منفتحـة علـى الحيـاة، امـا القلب الـذي يضع عليـه صاحبه الاقفـال المصنوعة من الجبن، والتـردد، والمصلحية، والتقوقع، والانطواء على الذات فانه يعجز عن فهم الآيات القرآنية.

ان آيـات القـرآن تتفجـر بالنور والهـدى، في حيـن اننا نعيش مآسـي التخبـط والضلالـة فـي بلادنـا، ولانملـك الرؤيـة الواضحة الـى اوضاعنا. وعلى سـبيل المثـال فاننا بدلاً من ان ندين السـلطات الظالمة ترانا نعمد الى ادانة المجاهدين الثائرين في سبيل الله تعالى،

(١) محمد: ٢٤.

فهل تدل هذه الظاهرة على اننا قريبون من القرآن، او اننا نتفهم آياته كما ينبغي، ام تدل ان قلوبنا تنوء تحت اقفال متراكبة على بعضها وضعناها بمحض ارادتنا؟

والقرآن الكريم ينذر ويتوعد اصحاب الثقافة التبريرية أنّى كان مصدرها، قائلاً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**﴾[1].

فالقرآن يصرح بان هؤلاء مرتدون حتى وان تعاملنا معهم كمسلمين. فالافكار التي يحملونها هي من وحي الشيطان مباشرة. فشيطان الخوف والتردد، وحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، هو الذي يسول لهم، ويرسم طريقهم.

ثم يبين القرآن الكريم أساس ثقافتهم الباطلة فيقول: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ**﴾[2].

فتحالف هؤلاء مع القوى الشيطانية هو الذي يدعوهم الى التفتيش عن افكار سخيفة ستؤدي بهم الى ان يكون مصيرهم رهيباً، كما يصرح بذلك سبحانه في قوله: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾[3].

وفي مقابل هؤلاء المتقاعسين الذين يحملون النزعة التبريرية،

(١) محمد: ٢٥.
(٢) محمد: ٢٦.
(٣) محمد: ٢٧.

هنـاك الطليعـة التي تمثـل قمـة التحدي الاسـلامي، وشـعلة الثورة الاسـلامية، كمـا تمثل ضميـر الأمة الاسـلامية وروحها. فالانسـان الشـاب الذي يترك زوجتـه ووظيفته ومسـتقبله، ويتوجه مخلصاً لله تبارك وتعالى، انما يمثل في الواقع الامتداد الطبيعي لاصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو نسـخة من ذلك الكتاب الذي خطه الحسـين عليه السلام في كربـلاء بدمه الطاهر الزكـي. فليس من الهيّن ان يتجرد الانسـان عن كل ذاتياته، ومصالحه الشـخصية، ولذلـك فانه عظيم عند الله بغض النظر عن انتماءاته.

وإذا مـا غـاب هؤلاء، أو لم تقـم الأمة بواجبهـا تجاههم فانها ستفقد عضواً هاماً من اعضائها، لانهم يمثلون عين الأمة، فان تركت عينهـا هـذه فانها سـتتعرض الـى أخطـار عظيمة،وتصبح أمـة عمياء خاضعة للقوى الاجنبية الطامعة، ويكون مصيرها إلعوبة بيدها.

العقاب الالهي في انتظار المبررين:

وعلى سـبيل المثال فان يزيد بن معاوية وبعد استشـهاد الامام الحسـين عليه السلام اباح المدينة المنورة لمدة ثلاثة أيام لجيشـه المرتزق السفاك وقد روى ذلك أكثر المؤرخين حيث جاء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعن مـن يحدث في المدينة حدثـاً، وجعلها حرماً، وكان ذلك النهب على يد مسـلم بن عقبة نائبه الذي نفذه اليهم، وسـبى أهل المدينة وبايعهم علـى أنهـم عبيدقنّ ليزيـد بن معاويـة، وأباحهـا ثلاثة أيـام حتى ذكر جماعة من أصحاب التواريخ أنه ولد منهم في تلك المدة أربعة آلاف مولود لايعرف لهم أب، وكان في المدينة وجوه بني هاشم والصحابة والتابعين وحرم خلق عظيم من المسلمين، وأتبع يزيد ذلك في وصيّته

لمسلم بن عقبة بإنفاذ الحصين بن نمير السكوني لقتال عبد الله ابن الزبير بمكة، فرمى الكعبة بالحجارة! وهتك حرمة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وتجاهر بالفساد في العباد والبلاد[١].

وقد صرح الامام زين العابدين عليه السلام بعد ذلك بان هذه الحادثة كانت عقاباً من الله عز وجل، لان أهل المدينة قعدوا عن نصرة امامهم، وخذلوه، فسلط الله عليهم الظالم كما يقول الحديث القدسي: «الظالم سيفي انتقم به وانتقم منه»[٢].

وقد قال الامام الحسين عليه السلام في كربلاء: «والله لوهتكت حرمتي لاتبقى حرمة لاحد».

وفعلاً وبعد استشهاده عليه السلام انتهكت جميع حرمات المسلمين؛ فتهدمت الكعبة، واستبيحت المدينة، وهتكت اعراض النساء، ولم تبق حرمة لانسان مسلم.

ومن أجل ان لاتتكرر هذه المأساة علينا أن ننصر المجاهدين ولو بكلمة طيبة.. نوظفها في سبيل الله تعالى، ومن أجل المحافظة على حرماتنا، وصيانة شرفنا. فالبلد الذي يفتقر الى العناصر الرسالية فانه لاقيمة له، فلو انتهكت حرمات الساكنين فيه فلا يوجد هناك احد يدافع عنها، كما ان البلد الذي لايلتف حول الرساليين المجاهدين من ابنائه، ولايبذل لهم الامكانات والمساعدات فان قيمته ستنعدم عند الله عز شأنه.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٣٨ / ص ١٩٣ / رواية ٢.
(٢) كلمة الله / ص ١٨٠.

وهكـذا فان على الأمة مسـؤولية كبيرة تجـاه طليعتها، كما ان الطليعة لابد ان تقوم بدورها هي الأخرى تجاه الأمة.

بين الاستسلام للارهاب والتحدي:

واخيـراً اقولها وبكل صراحة ان الذين يستسـلمون للارهاب، ويزعمون ان لاحول ولاقوة لهم في مواجهته، فانهم يتشـبثون بثقافة تبريرية مرفوضة شـرعاً. اما الشعب الذي يتحدى، ويتوكل على الله جـل وعـلا، ويكون كأولئك الذيـن قـال عنهـم تعالـى: ﴿**وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَـآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾[1] فانهم سـوف يجدون الطرق المناسـبة للعمل ضد الطاغوت. صحيح ان طريقاً ما قد يكون مسدوداً، ولكن لابد من وجود طريق آخر بديل عنه. وعلى سـبيل المثال فقد لاتسـتطيع ان تشـارك في التظاهـرات الجماهيرية بسـبب مرضـك، او كبـر سـنك، ولكنك تسـتطيع ان تسـهم بمالك، فـان فرضنـا انك عجزت عن ذلـك فان بامكانك – علـى الاقل – ان تستخدم كلمة الحق كسلاح اعلامي فاعل.

وبنـاء علـى ذلك فاننـا إذا توكلنا على الله تقدسـت اسـماؤه، وتيقنا من انه لا يخيب من أحسن الظن به، وانه عند من يتوكل عليه، فحينئذ ستتفتح امامنا الابواب، ونعرف الطرق المناسبة للعمل.

ولنعلم في هذا المجال ان العقبة الكبرى التي تواجهنا في هذا الطريق هي تسـويلات الشـيطان المتمثلـة في الثقافـة التبريرية، التي يتعين علينا ان ننقذ انفسنا منها من خلال التدبر في القرآن الكريم.

---

(١) ابراهيم: ١٢.

لنعرض انفسنا على القرآن:

فلنعرض انفسنا على القرآن الكريم، ولنرفض كلمات كل انسان لا يصدق عمله قوله، وعلينا ان لا نعير أية أهمية الى تخرصات وادعاءات الحاملين للثقافة التبريرية الذين لاتهمهم سوى مصالحهم وانانياتهم، وسوى ان يكونوا عبيداً أذلاء لاسيادهم المتكبرين. ولنجعل الذكر الحكيم بيننا وبين السلطات الفاجرة ان كنا حقاً من المسلمين، ومن اتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومن المؤمنين بالعقيدة التوحيدية التي تقتضي من الانسان المؤمن بها ان يرفض جميع اشكال العبودية والتبعية للمخلوقين.

وفي هذا المجال علينا ان نتدبر في القرآن الكريم بأنفسنا، وان نستوحي من آياته المباركة معاني الثورة، والاستقامة، والصمود، والانتفاضة في وجه الاعداء، وان نفتح الاقفال الموضوعة على قلوبنا، ونمزق الحجب التي تحول دون ان نفهم القرآن فهماً حقيقياً، وان ننظر الى الحياة طبقاً لبصائر هذا الكتاب العظيم الذي هو كما يقول الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفّع، وماحل مصدّق، من جعله امامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار»[1].

(١) بحار الأنوار / ج ٧٧ / ص ١٣٤ / رواية ٤٦.

الأمة والمعوقـون

لو كان من حق الانسان ان يتصوّر لنفسه ديناً خاصاً يتّبعه، ويدخله الله تعالى به الجنة، لما كانت هنالك حاجة ملحّة الى بعث الرسل، ولا الى تواتر الرسـالات الالهية الى البشـرية جمعاء. فلا ريب ان دين الله ليس هو كل ما يتصوّره الانسـان، ومـا يعتقد به. فهناك من يعتقد بعبادة الاصنـام الحجريـة، او عبادة نـوع من النباتـات، او الحيوانـات.. ولو كانـت هذه الاعتقادات كافية للانسـان لما بعث الله عز وجل الرسـل، ولما انزل الكتب المقدسة، ولانعدمت جدوى الانبياء والمرسلين من أجل تحكيم مبدأ التوحيد، والعمل برسالات الله.

التمنيات لا تكفي:

وهنـاك من الناس من يعيشـون الاوهـام، ويختلقون الافك، ثـم يعتقدون بـه زاعمين انهم على الصراط المسـتقيم. فـي حين انه لايكفي الانسـان ان يعيش فـي عالم التمنيات، فيمنّي نفسـه بصلاح اعمالـه، وكثـرة انجازتـه، وبالتالي بالفـوز بالجنة. فهنـاك الكثير من النـاس ممـن يرتكبـون المعاصي، ويعملـون المنكـرات، ومع ذلك

فانهم يخدعون انفسهم بصلاح اعمالهم، وان تلك المعاصي لا تحول دون دخولهم الجنة.

وهناك فئة اخرى تزعم ان الدين ماهو إلاّ مجموعة من الواجبات الشخصية يقوم بها الانسان بعيداً عن المسؤوليات الأخرى كالمسؤولية السياسية والاجتماعية؛ معتقدين ان اداءهم لهذه الواجبات سيضمن لهم النجاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة. في حين ان هذا التصوّر هو ليس من الدين في شيء، فما ذهب اليه هؤلاء هو وسيلة لتبرير تقاعسهم، وانهزامهم من المسؤولية الرسالية، وارتكاسهم في اوحال الجهل والتخلّف. ومن عادة هؤلاء ان يفتّشوا عن أي حديث، او رواية تؤيد وجهة نظرهم؛ كأن يأتي احدهم بقصص واحاديث غير موثوق بها، في حين ان عليه ان يتمسك بالقرآن الذي يمثّل الحجة الشرعية الدامغة.

حقيقة الاسلام:

والقرآن الكريم عندما يبيّن لنا الاسلام، فانه يبيّنه على حقيقته نابضاً بالحيوية، فاتحاً للآفاق، كاشفاً عن الحقائق، مثيراً لدفائن العقول، مبصّراً بالاوضاع، لا كما يتصوّر البعض من المحدودية والعجز والانفصال عن الواقع.

ومن هنا فانّنا نعتقد انه لايكفي ان يدّعي الانسان الايمان، بل يجب ان يجسّده على ارض الواقع ضمن أطر الدين التي تشمل الحياة كلّها، وبالطبع فان الانسان لايستطيع ان يصل الى درجة الايمان من دون ان يواجه الصعوبات والازمات فهذه المواجهة ضرورية من

اجل ان يجتاز مرحلة الامتحان، ليثبت جدارته في الالتزام، وتحدي أهواء الذات.

ان مشـكلة المسـلمين اليوم تكمـن في انهم خلقوا لانفسـهم اطـراً واعتقـادات لاتمـت الى واقـع الديـن بصلة، في حيـن ان هذه الاعتقادات ليسـت هي الاسـلام الذي اراده الله عز شأنه للأمة. وقد تكرّست هذه الحالة فينا – للاسف – الى درجة ان الكثير من الآيات القرآنية التي نزلت في المنافقين بدأت تنطبق علينا اليوم.

مشكلة التعويـق:

ومـن الصفـات التي ذكرها القـرآن الكريم عـن المنافقين هي صفة التعويق التي يشير اليها تعالى في قوله: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُـمْ وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِـمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَـأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[1]، ونحـن نـرى ان مـن ديدن المسـلمين اليـوم اعاقة الأمة عـن العمل، والجهـاد في سـبيل الله بدلاً من تشـجيعها عليه؛ كأن يأتي الانسـان المسـلم الى صديقه فيخبره عن نـيّته في القيام بعمل رسالي ما، وإذا بصاحبـه هذا يسـلب منـه طموحه، ويقتـل ارادته عبر كلمات سـلبية كأن يلومه على عدم التفكير بمسـتقبله ومسـتقبل عائلته، او يوحي له بأن الطريق الذي يسـلكه فيه مخاطر كثيرة من مثل؛ التشـرّد والهجرة والمشاكل المالية وما الى ذلك.

وهكذا فان مما يؤسـف له ان هنـاك من يدخل الصراع بصورة سـلبية؛ كأن يبذل جهده مـن أجل ابعاد الآخرين عن سـاحة الصراع

(١) الاحزاب: ١٨.

الرسالي، حالهم في ذلك كحال اولئك الذين تفرّقوا عن مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة قائلين: مالنا والدخول في السلاطين! حيث كان هذا التعويق سبباً في ارتداد اربعة آلاف مقاتل ممن كانوا مع مسلم، حتى بقي وحيداً في ساحة المواجهة.

وللاسف فان هذه الحالة مازالت سائدة في مجتمعاتنا اليوم؛ ولكن بصور شتى. فنحن نرى ان الانسان المسلم الذي يريد ان يعمل في سبيل الله ضمن مشروع رسالي ما، يواجه حشداً ممن يقفون حائلاً دون انخراطه في ذلك العمل المقدّس، وإذا ما تحدّاهم فانهم يبادرون الى اعلان حرب نفسية عليه لا هوادة فيها.

ومن الواضح جدّاً ان الازمات والمشاكل التي تعيشها امتنا اليوم انما هي افراز طبيعي لمثل هذه الحالات السلبية التي مازالت تخيّم علينا، وبامكاننا ان نلمس ذلك بوضوح عندما تصمم جماعة ما على الجهاد ضد الانظمة الطاغوتية، فانك في هذه الحالة سوف لاتسمع إلاّ حديث المعوّقين يرتفع في سماء المعارضة السلبية للحيلولة دون تحقيق تلك الجماعة لهدفها بل ان الادهى من ذلك ان بعض هؤلاء المعوّقين قد يمجّدون شخص الطاغية ليشاركوه في اضعاف جبهة الحق، وليسهموا في ترسيخ دعائم الانظمة المعادية للاسلام.

الآثار المرّة للتعويق:

والدليل على ذلك في التأريخ الاسلامي انحراف الخلافة الاسلامية عن مسارها الصحيح بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد

نـبّهـت فاطمة الزهـراء عليها السلام المسـلمين، وحذّرتهم مـن الاوضاع الجديدة قائلة: «لقحت فنظرة ريث ما تنتج، ثم احتلبوا طلاع القعب دمـاً عبيطاً، وذعافا ممضّا هنالك يخسـر المبطلـون، ويعرف التالون غبَّ ما أسـكن الأوّلون». أي اصبروا حتى تثمر هذه الشجرة الخبيثة التي زرعتموها. ولم تمرّ الايام طويلاً حتى تسـلّط على الأمة اخبث النـاس من امثال معاوية، وابنه يزيد، وسـمرة بـن جندب الذي حكم البصرة ليلة واحدة قتل فيها مايقرب من خمسة آلاف انسان بريء!!

وعندمـا سـكت الناس علـى مقتل نبـيّ الله يحيى بـن زكريا عليه السلام؛ عندمـا ذُبح في وضح النهار بفتوى ملفّقة من بني اسـرائيل، دون ان يعتـرض احـد علـى هـذه الجريمة النكـراء، بقي دمـه الزكي يفـور من موضع قتله دون ان يسـتطيع احـد ايقافه. ولكن ما ان مرّت فتـرة وجيـزة من الزمـن حتى سـلّط الله تعالـى (نبوخذ نصـر) على بني اسـرائيل، فقتل منهم سـبعين ألفاً، حتى اصبحت دماؤهم تسـيل كالنهر، وحينئذ توقّف فوران دم يحيى عليه السلام بعد ان اخذ الله بثأره.

وفي الحقيقة فان هذه القصص ليست للمتعة والاثارة، بل هي عبرة لنا لنعيد النظر الى هداها في نوع الدين الذي نعتقد به؛ فان كان يعني التبرير واختلاق الاعـذار والتقاعس والانهزامية، فهو ليس من الاسلام في شيء.

لندرس الاسلام من جديد:

ان علينا ان ندرس الاسـلام من جديد، وان تكون لدينا القدرة على التمييز بين اسـلام الله، وبين اسلام الشعارات الذي لانفهم منه

سوى اسمه، وبعض الممارسات السطحية.

ان الاسلام الحقيقي هو الاسلام الذي لايعترف بالحدود والفوارق أيّا كانت. وهذا هو الاسلام الحق الذي يجب ان نلتزم به، ومتى ما استوعبناه، وحوّلناه الى واقع على الأرض، فحينئذ سوف لاتنكّس للمسلمين راية، وسوف لايبقى لهم مكان في ارض التخلف، وسيرفل الجميع بالخيرات والنعم، وبالسلام والاطمئنان.

السبيل الى القمـة

عندمـا ندخـل فـي رحـاب القـرآن الكريـم فاننا ندخـل – في الحقيقة – في روضة من رياض الجنة، حيث يشاهد الانسان الحقائق عن كثب. فهو عندما يحدثنا عن حقيقة ما، فانه يكشف لنا عن جميع جوانبها وأبعادها، ويجعلنا نراها رأي العيـن.

والقـرآن – وبالتحديـد فـي سـورة آل عمـران – يحدثنا كيف يمكـن ان تكون الأمة مقتدرة وعزيزة في الدنيا، ومفلحة في الآخرة. وقـد أمرنا الله تعالى في هذه السـورة بعملين احدهما يكمل الآخر؛ التمسك بالكتاب، ثم التمسك بالنبي وآله عليهم السلام.

ومن المعلوم ان الكتاب هو الطريق، والنبي قائد هـذا الطريـق؛

والكتـاب فكـرة والنبي هو الـذي يبين هذه الفكـرة. فالكتاب لم ينزل من السـماء على شـكل قراطيس، بل انـزل علـى قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم أمره تعالى ان يبينه ليزكـي الناس، ويعلمهم.

قـال الله تعالـى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**

﴿وَالْحِكْمَةَ وإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[١].

ومن هنا فاننا بحاجة الى عنصرين مهمين هما: الامام والشريعة. فان الله تبارك وتعالى عندما يأمرنا بالتمسك بهذين الاساسين، فانه يشير الى انهما يمثلان حبلاً واحداً.

ومن هذا المنطلق فان النبي ﷺ أوصى المسلمين قائلاً:

«اني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي: تاب الله، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[٢].

وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾[٣].

فمن يتولى عن الكتاب او عن النبي او عن الامام الذي جعله الله مبيناً للشريعة فانه سيكون كافراً.

التقوى أولاً:

بعد ذلك يوجه القرآن الكريم خطابه الى المؤمنين فيقول: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٤].

والخطاب موجه هنا الى المؤمنين بشكل مباشر، فيأمرهم

---

(١) آل عمران: ١٦٤.
(٢) بحار الأنوار / ج ٢ / ص ١٠٠ / رواية ٥٩.
(٣) آل عمران: ١٠١.
(٤) آل عمران: ١٠٢.

تعالى ان يتقوه تقوى تتناسب معه؛ اي مع الرب الذي خلقنا من نطفة، ثم اودع هذه النطفة في اصلاب آبائنا، وارحام امهاتنا، والذي خلقنا طوراً من بعد طور، وحفظنا من آلاف الاخطار.. فهو محيط بنا علماً، ويعلم ما توسوس به انفسنا. فعلينا - إذن - ان نعرف من نتقي.

ثم يقول عز وجل: ﴿**وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ**﴾[1].

ومن خلال هذه الآية يمكننا ان نستوحي بصيرة؛ وهي ان الانسان عندما يعصي الله ولايتقيه فان هذه المعصية سوف تستدرجه، وتدفعه الى ان يرتكب ما هو أكبر منها حتى يفقد ايمانه.

ويؤكد القرآن على ضرورة الوحدة، والالتفاف حول القيادة الربانية فيقول: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾[2].

والحبل الالهي هو الكتاب، والقيادة الربانية المتمثلة في شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام ثم الفقهاء العدول. والقرآن يبين هنا العلاج، ثم يشير الى الداء الذي هو التفرقة. فالاختلاف داء وبيل يحطم شخصية الأمم، والعلاج الوحيد هو الاعتصام بحبل الله.

نعمة الاسلام:

ثم يقول سبحانه مشيراً الى نعمة الاسلام التي توحد بها العرب قبل الاسلام: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾[3].

(١) آل عمران: ١٠٢.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) آل عمران: ١٠٣.

فقد كان الواحد منهم ينام والى جانبه سيفه، لان الآخرين من الممكن ان يغيروا عليه في أية لحظة. فكانت حياتهم قائمة على اساس الخوف والحرب لولا ان رحمة الله قد تداركتهم، ونزلت عليهم متمثلة في شخص الرسول ﷺ والقرآن الكريم.

الأمة المقتدرة:

ثم يبين الخالق عز وجل صفات الأمة المستقيمة الداعية الى الخير فيقول: ﴿**وَلْتَكُن مِنكُمْ أمة يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[1].

ربنا جل جلاله يبين لنا في هذه الآية الطريق الذي نستطيع من خلاله ان نحافظ على الأمة، بحيث لاتتحول الى فرق متناحرة. من هذا المجال لابد من القول اننا لانستطيع ان نمنع الانهيار والتمزق بالشعارات والخطابات، بل لابد من التمسك بالقرآن والقيادة الربانية التي أمر القرآن باتباعها. فيجب ان تتفرغ الأمة كلها للدعوة الى الخير، وان يكون هناك رجال يحافظون على وحدتها، لانه هنالك شياطين الانس الذين يعملون على تمزيق الأمة، وإثارة الخلافات والفتن بين صفوفها.

كيف ننشر الفضيلة في العالم؟

وفي هذا المجال علينا ان نتساءل: ماهو جهاز الدعوة الذي يجب ان نشكله، وكيف ننشر الفضيلة في العالم؟

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

وللاجابـة علـى هـذا السـؤال نقـول: اننـا نمتلك نـور القرآن الكريـم، وعلينا ان نوصل هذا النور الى اقصى بقعة من بقاع الارض دون ان نتهـرب مـن المسـؤولية، لان الاعداء قد غزونـا بثقافتهم في عقـر ديارنـا. ولقد اسـتطاعت الاجيال السـابقة ان تحافـظ على هذا الدين، وان توصله إلينا. ونحن ايضاً علينا ان نتحمل مسؤولية ايصاله كما هو الى الاجيال القادمة.

فعلينـا ان نفكر تفكيراً موضوعياً، وان نصمم على تنفيذ جميع الواجبات الشرعية، ومن ضمنها فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالانسـان يعرف نفسـه قبل ان يعرفه الناس كمـا يقول تعالى: ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾[1].

وعلى هذا فانني لااستطيع ان اتهرب من مسؤوليتي، لان هذه المسـؤولية معلقـة برقبتي كما يقول سـبحانه: ﴿**وَكُلَّ إِنسَـانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾[2].

فعلي -إذن - ان احاسـب نفسـي قبل ان يحاسـبها الآخرون، وقبل ان امثل امام المحكمة الكبرى.

وبنـاء على ذلـك، فان علينـا ان نواجه الحقيقة بكل شـجاعة، ونقـر بـان الله تعالى قـد قدم إلينـا برنامجاً علينـا ان نطبقـه، وانه قد استضافنا في دار ضيافته الكبرى وهي الجنة، وهذه الجنة بحاجة الى

(١) القيامة: ١٤-١٥.
(٢) الاسراء: ١٣.

دليل نتمسك به، وهذا الدليل يتجسد في الرسول وأهل بيته عليهم السلام.

ونحن عندما نتمتع بروحية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فان العلم كله سوف لايستطيع ان يتغلب علينا، لان المدافع هو رب العزة، ولان هذه الفريضة لاتقدم اجلاً، ولا تقطع رزقاً.

ان على كل واحد منا ان يتحول الى منبر للدعوة الى الخير. كما جاء في الحديث الشريف عن الصادق، عن آبائه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقف عند طلوع كل فجر على باب علي وفاطمة يقول: «الحمد لله المحسن المجمل المنعم المفضل الذي بنعمته تتم الصالحات سمع سامع بحمد الله ونعمته وحسن بلائه عندنا، نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من صباح النار، نعوذ بالله من مساء النار، الصلاة يا أهل البيت إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً"[1].

وبالاضافة الى ذلك فان علينا ان نعمل - ما استطعنا الى ذلك سبيلا - من أجل المشاركة في انجاز المشاريع التي من شأنها ان تنشر الرسالة الاسلامية كأن نؤسس حسينية، او نشكل مكتبة يتعرف فيها الآخرون على الفكر الاسلامي، او كأن نعمل من اجل اصدار الكتب وتوزيعها... وبالتالي فان هناك مجالات كثيرة مفتوحة امامنا يتجسد من خلالها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لان هذه الفريضة ذات مفهوم واسع وشامل لايمكن ان ينحصر في مجالات ضيقة محدودة.

---

(١) بحار الأنوار / ج ٨٦ / ص ٢٤٧ / رواية ٦.

وبالطبع فان هناك اناساً يتفوقون على غيرهم في هذا المجال، فتراهـم يخاطرون بحياتهم من أجل نشـر الرسـالة الالهية في ارجاء الارض، وهـؤلاء هـم الذين باعوا انفسـهم لله لقاء الجنة مجسـدين المفهوم الحقيقي للجهاد، وهؤلاء الاشـخاص انما يصلون الى هذه المرتبـة السـامية من خـلال التوفيق الالهـي، لانهم تفرغـوا للدعوة والعمل والتبليغ.

امـا الآخرون فـان عليهم ان يقوموا - علـى الاقل - بجزء من اعمال اولئك. فكما ان الصلاة والصوم لايسـقطان عن الانسـان في جميع الاحوال، فكذلك الحال بالنسـبة الى الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر، شـريطة ان تؤدى هـذه الفريضة بما يتناسـب مع طبيعة العصر الذي نعيشـه. فبالتواضع، وسعة الصدر، والمجادلة بالتي هي أحسن يمكننا ان نقوم بعملية التبليغ والدعوة.

وعندمـا تظهـر فـي الأمـة مجموعـة او طائفـة هدفهـا الأمـر بالمعـروف، والنهـي عـن المنكـر فان هـذه الأمة سـتصل الـى قمة السعادة والفلاح، وستتحقق جميع اهدافها الدنيوية والاخروية.

السبيل الى الوحدة

ترى لماذا يخشى المستكبرون وحدة الأمة ويعتبرونها وبالاً فادحاً عليهم، ولمإذا يصيبهم الرعب من ان تجتمع شعوب الأمة الاسلامية وتتوحد في ظل قرآنها وعلى مائدته، وهل هناك ضرر لو انصهرت هذه القوى والطاقات المتناثرة والمتشتته في البلدان الاسلامية في بوتقة وقالب واحد لتصبح قوة هائلة تعمل من اجل خيرها وخير كل انسان على ظهر هذه البسيطة، وما الذي يخيف هؤلاء الذين يرسمون من وجودنا الموحد صورة للرعب يخيفون به البشرية، وما الذي يرعبهم في ان يكون الانسان المسلم حراً في حركته وتنقله في عالمه الطويل العريض بلا اوراق عبور، وبدون ما اصطلحنا على تسميته بـ(الحدود) التي ماهي إلاّ حواجز وموانع اختلقت للحيلولة بين اجزاء كياننا الواحد؟؟

في تلك العصور التي كانت فيها اوروبا متخلفة ومتمزقة وموزعة تحت الف راية، ويحكمها الف نظام ونظام، كان الرحالة العربي المسلم (ابن بطوطة) يشد راحلته ليجوب بها الشرق والغرب، والشمال والجنوب. من أقصى الارض الى أقصاها دون

ان يعترضه احد، ودون ان يجرؤ على ان يسأله: من أنت، ومن اين جئت، والى اين تذهب؟ علماً ان هذه الاسفار الحرة كانت سائدة في عصر يحتاج فيه الزائر لبيت الله -مثلاً- الى أشهر عديدة، بل ربما سنوات لكي يصل الى مكة قادماً من اقاصي الارض ليعود الى بلاده حاجاً.

بهذا الاسلوب استطاع الاسلام ان يجمع في احضانه تلك البلاد البعيدة الواسعة المترامية الاطراف. فما الضير في ان يعود هذا الاسلام ليعيد الى تلك البقاع وحدتها وتلاحمها وانسجامها وتراصها، لتذق الشعوب في ظله الراحة والطمأنينة والسعادة والرقي والازدهار؟

ثم ما الضير في ان تكون هناك قوى عديدة أخرى في هذا العالم بدلاً من ان تكون اميركا هي المنفردة في السيطرة على العالم؟

ان مثل هذه الظاهرة لتدل على الطبيعة الجشعة التي جُبل عليها الانسان الى درجة انه لوكان بمقدوره ان يمتلك الخزائن التي اودعها الله تعالى في هذا الكون، اذن لأمسك عن الأنفاق خشية الاقتار والفقر. فلماذا كانت مثل هذه الطبيعة عنده؟

لو فتشنا عن السبب لوجدناه كامنا في الرؤية الضيقة لهذا الانسان، وفي حرج الصدر، والتقوقع في الذات؛ اي في الانانية، وحب الذات الذي يتولد عنه حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة.

وقد أشار القرآن الكريم الى الطبيعة الانسانية هذه في قوله: ﴿**قُل لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لاَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ**

وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾(١).

فالانسان بطبيعته المادية لايفكر إلاّ في ذاته، واستناداً الى هذا المنطق المرفوض تحكم الجشع والطمع والطبيعة الاحتكارية الاستغلالية، ولعل هناك آيات أخرى من الذكر الحكيم تؤكد على هذا المعنى، ومنها قوله عز من قائل: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً**﴾(٢).

وهذه هي الطبيعة السلبية غير المهذبة التي تنشأ في الذات الانسانية وتنمو وتتأصل بمرور الزمن، واليها يرجع السبب في بقاء ما يزيد على ثلثي نفوس العالم يعانون الفقر، والتخلف حيث يدخل مجموع العالم الاسلامي في هذا الرقم.

الوحدة في خدمة الانسانية:

وعلى هذا الاساس فإذا ما ساد الأمة التقدم والاتحاد والانسجام، وخصوصاً امتنا الاسلامية فان هذا التقدم والاتحاد سوف لا يكونان على حساب مصالح الغير ومنافعهم، إلاّ إذا كانت هذه المصالح عدوانية خارجة عن الحق. وحينئذ تكون تسميتها بالظلم والاستئثار والاستعمار اولى من ان تسمى بالمصلحة او المنفعة، لان الخير الذي يسود أمة من الأمم لابد ان يعم الأمم الأخرى. فالله سبحانه وتعالى خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا، ويتبادلوا الخير، ويتعاونوا ويتكاتفوا في السير الحضاري نحو

(١) الاسراء: ١٠٠.
(٢) المعارج: ١٩-٢١.

التكامل.. ليشتركوا باجمعهم في بناء الحضارة، واقامة ركائزها كما أراد الله تبارك وتعالى. فلماذا لايدعوننا - إذن - ننطلق لتحقيق هذا الهدف الاسمى؟

ان السيارات التي نستقلها اليوم ربما لم نكن نحن صانعيها، إلاّ اننا اشترياها بنفطنا الذي استخرجناه من آبارنا، والذي اعتمدت عليه المصانع في سبيل انتاج تلك السيارات. وعلى هذا فان كل واحد منا لابد من ان يحتاج الى الآخر في ثرواته، او طاقاته، او خبراته وكفاءاته، فلماذا يريدون احتكار ذلك كله ومنعنا من ان ننال نصيباً منه، ولماذا يقاومون هذا الوجود الاسلامي الهادر ويحاولون دون تفاعله مع بعضه لتنتج عنه أمة واحدة هي خير أمة اخرجت للناس، وما الذي سيخسرونه عندما تزول عوامل التخلف عنا، ومإذا يضيرهم ان يرتفع المستوى المعاشي لشعوبنا المنهوكة الفقيرة وتزول منها اسباب الجهل والفقر والمرض والأمية؟؟

تغيير النفس انطلاقة الوحدة:

وبالنسبة لنا؛ الى متى نبقى نعيش احلام وأماني التقدم التي نمني بها انفسنا في الازدهار، وبلوغ السعادة والرفاه؟

ان هذه هي حالتنا اليوم، وهي اضحة بينة لكل ذي عينين؛ فالبلاد التي كانت واحدة تمزقت بالامس القريب وظلت تزداد تمزقاً وتشرذماً حتى يومنا هذا. فالى متى نبقى على هذه الحالة البائسة، وهل سيبقى هذا قدرنا المقدر الى الأبد؟

حاشا لله تعالى ان يجعل قدر أمة من الأمم هكذا، إلاّ بما

جنته يداها. وحاشا له ان يقدر هذه الاوضاع لامة كانت خير أمة اخرجت للناس. فربك ليس بظلام للعبيد، فالداء كامن في أنفسنا، وكل مانعانيه اليوم من فقر وجهل وتخلف وتجزئة وشقاء وتبعية ومطاحنات وحروب داخلية انما منشأه من ضعف نفوسنا، وانطوائنا على ذاتنا، وانانيتنا، وحبنا للدنيا، وتهافتنا المستميت على ملاذها....

ولكن هل من سبيل الى مخرج، وهل للمشكلة هذه من حل؟

ان السبيل ممهد، وحل المشكلة يكمن في ان نتخذ قراراً لا رجوع عنه في ان نغير انفسنا كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[1].

وهذه هي السنة الالهية التي لابد منها لكي تتغير الاوضاع، ولكن ماهي نقطة الانطلاق في هذا السير؟

للاجابة على هذا السؤال الهام لابد ان نقول: ان تحقيق هذا الهدف ليس عسيرا كما يتصور البعض لكي يثبط من حركتنا، ويهد عزيمتنا فنتردد في التقدم والتحرك باتجاهه. فكل ما في الأمر اننا يجب ان نتحرر من اسر اليأس والقنوط حتى لانبقى مكتوفي الايدي فاقدي الثقة بانفسنا. فلابد لنا من العمل والحركة والمثابرة واحياء الهمم. وإذا ما تحقق كل ذلك فلا مناص من ان يأتي ذلك اليوم المبارك الذي وعدنا الله سبحانه به، وحدثنا به منطق التأريخ، وهو اليوم الذي سترفرف فيه راية التوحيد على جميع ارجاء العالم الاسلامي، ويعيش فيه المسلمون تحت ظل العدالة، والوحدة، والسعادة، والرحمة.

---

(١) الرعد: ١١.

الوحدة وطريق ذات الشوكة:

وهنا لابد من التذكير بنقطة هامة وهي ان حلول ذلك اليوم ليس معناه ان العالم الاسلامي سوف لن يواجه ماينغص عيشه، كما ان طريقه سوف لا يكون خالياً من كل أثر للويلات والمصائب والفتن. فمادامت الدنيا فلابد من المنغصات والفتن والمصائب.. ولكن الحقائق السامية، والقيم النبيلة تبقى رغم كل ذلك، لانها تمتل حقائق متصلة بصاحبها المطلق تعالى اسمه.

والذي اريد ان الفت الانتباه اليه هنا، هو اننا مادمنا نعيش هذه العشرات من السنين فلماذا نعيشها في دهاليز سوداء من الفقر والتخلف والهموم والمعاناة.. علماً ان الله تقدست اسماؤه يذم من لايتحرك، ولايستثمر مصادر الخير، ويستخرج كنوز الارض ليخلق السعادة والرفاه لنفسه ولغيره كما يشير الى ذلك قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامة كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[1].

والسياق المبارك في هذه الآية الكريمة يؤكد على قدرة الانسان المؤمن على تطبيق التشريعات والقوانين والتعاليم التي تضمنها القرآن الكريم، وبذلك يمكن للمؤمن ان يبلغ الذي يحكم به ويتمناه.

ومع ذلك كله تبقى المنغصات التي لا مفرّ منها، وتبقى الدنيا

(١) الاعراف: ٣٢.

مشـوبة ببعض الأكدار. امّا تلك السـعادة، واللذة الدائمة فليس لهما محل في هذه الدنيا التي كتب عليها الفناء منذ ان ظهرت الى الوجود، بل محلها في الآخرة التي هي للمؤمنين وحدهم.

والمطلـوب منـا ان نسـعى وفـق تعاليـم الشـريعة السـمحاء، ودسـتور القـرآن الكريم الـذي وجه خطابـه الى النـاس جميعاً دون استثناء، ذلك لان الله سبحانه وتعالى ينظر الى هذا الانسان ويحمله المسؤولية كانسان بعيداً عن الموقع والمركز والمال والانتماء..

حتـى إذا دخل هذا الانسـان عالم الايمـان وامضى على وثيقة الشـهادتين عندئذ يأتيه الخطاب بسمة جديدة هي سمة الايمان. ففي حالة الايمان يكون الدور أكبر، والمسؤولية أعظم، والمهمة اوسع.

السبيل الى الوحدة:

ترى ماهو السبيل – إذن – الى الوحدة، وكيف يمكننا ان نوحّد المؤمنين ليتوحد العالم الاسلامي؟

ان تحقيـق هذا الهدف ليس عسـيراً، فبرنامج توحيد المؤمنين مرسـوم في القرآن الكريم الذي حدد العوامـل والعناصر التي تؤدي الى وحدة الأمة الاسلامية وتلاحمها.

وفيما يلي سـوف نتطرق بشـكل مقتضب الى تلـك العناصر، نركز الحديث حول العنصر الاساسي من عناصر الوحدة:

١ – عنصر العقيدة والتوحيد؛ وهو الاعتراف والايمان بالوهية الله عز وجل وربوبيته وعبوديته وحده لا شـريك له، ومن ثم الايمان برسـله وانبيائه وكتبه، وكل ما يتعلق بالتوحيد والعقيدة واصولها وفروعها.

٢- الايمان والاهتمام بالقيم والمبادئ، والتطبيق العملي لهما.

٣- القرآن الكريم هـو الكتاب الذي نتفق عليه جميعاً، وننهل منه في شتى شؤون حياتنا، فهو بمثابة دستور وقانون موحد لنا. ومن الواضـح الدور الكبير الذي من الممكن ان يؤديه القانون الواحد في توحيد الكتلة البشـرية، خصوصاً واننا نرى اليوم الجهود والمساعي الحثيثـة التـي تبـذل من أجـل صياغـة قانون واحـد ومشـترك يوحّد الشعوب في هذا العالم.

٤- التأريـخ المشـترك والتـراث الواحـد اللذيـن يجمعـان المسلمين.

٥- المصير المشـترك؛ ونعني به الهدف المشـترك، والمسيرة الواحـدة الذي يبلغ من الاهمية بحيث اننا لو لغيناه فسـوف لن يعود بامكاننـا الوصـول الى الهدف، وبلـوغ الوحدة. فلابد للمسـلمين - إذن - مـن نبذ الخلافات، والقضاء علـى التوجهات الفئوية، وألوان التجزئة من خلال المحافظة على وحدة الهدف والمسيرة.

الحج العامل الأكبر:

ان هـذه العناصر هي التـي تصل بنا الى الوحـدة، ويبقى هناك العامل الأكثر أهمية من عوامل الوحدة الأخرى ألا وهو زيارة الكعبة المشـرفة، وحج بيت الله الحرام. وسر التوحيد هنا يعود الى اسباب شـتى، منها ان اللـه تبارك وتعالـى عندما خلق السـماوات والارض اختار لنفسه موضعاً مباركاً، وبقعة محررة سماها «بيت الله الحرام».

وقد يتساءل سائل هنا: لماذا وصف هذا البيت بانه (حرام)؟

وللجواب على هذا السؤال نقول ان وجه الحرمة هنا يختلف عن كل وجوه الحرمة المعروفة، فالحرمة هنا تعني أن ليس لاحد الحق في الاعتداء عند هذا البيت على الآخرين، كما انه ليس من حق طائفة او جماعة السيطرة عليه دون طائفة أخرى من المسلمين.

وهناك تسميات أخرى لهذا البيت المقدّس منها، البيت العتيق. علماً ان المراد بالعتيق هنا ليس القدم، والبعد التأريخي، وانما اشتقت هذه التسمية من كلمة (العتق) التي تعني التحرر. وهذه الكلمة تعني أيضاً أن ليس لاحد حق السيطرة عليه وادعاء ملكيته، لان ملكيته لله وحده، ولكل مسلم في الارض الحق في أداء مناسكه عنده. وقد أكد تعالى على هذا المعنى في قوله: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**﴾[1].

ثم يأتي وصف آخر او ميزة أخرى اعطاها الله لبيته تؤكد وتعزز المعاني السابقة، وهي ميزة الأمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً**﴾[2]؛ اي ان كيان الانسان الذي يدخله مصون، ودمه محرم، وايصال الأذى إليه غير جائز.

ان الحج هو الشعيرة المقدسة التي تعمل على هدم الحواجز، وازالة الحجب القائمة بين النفوس، وبين ابناء الأمة الاسلامية الواحدة، وهي تترك الأثر المباشر والفعال في توحيد صفوف المسلمين وقلوبهم وكياناتهم.. ولكن هل استطعنا حقاً ان نستغل هذه الشعيرة المقدسة بابعادها واهدافها العظيمة؟

(١) آل عمران: ٩٦.
(٢) آل عمران: ٩٧.

هل فهمنا الحج حق فهمه؟

ان أحد الاسباب الرئيسية للفهم المحدود او الجانبي للحج عدم معرفة ووعي قيمة هذه الشعيرة الالهية، والدور العظيم الذي تؤديه في حياة المسلمين. فلو وعى الانسان المسلم وادرك جيداً الهدف الرسالي من وراء فريضة الحج، والدور الالهي الذي تقوم به لاستشعر ولمس عظمة فائدتها. ولذلك فان على علماء الاسلام ومفكريه اينما كانوا ان يبذلوا قصارى جهودهم من اجل توعية ابناء الأمة الاسلامية وارشادهم وايضاح معالم الحج وآثاره لهم قبل ان يتوجهوا الى بيت الله الحرام. وهذه مسؤولية كبرى تقع على عاتقهم سيسألون عنها غداً، اذ يجب عليهم ان يبينوا ابعاد الحج، وجوانبه العديدة الواسعة..

وبعد فهذا هو الحج في مفهومه الحقيقي، وهذا هو ما على علماء الاسلام ان يبينوه للناس، وإذا ماتم ذلك فان الحج سوف يتحول ليس الى قاعة اجتماع كبرى يجتمع فيها المسلمون فحسب، بل الى مصهر تذوب فيه الفوارق والاختلافات، وتموت في داخله عوامل التفرقة، ويصبح الجميع سواسية كاسنان المشط.

ولذلك يأتي السياق القرآني في خاتمة سورة الحج بصيغة أمر الهي يقول فيه عز من قائل: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1].

ولعل هذه الصورة هي اللافتة العريضة، واللوحة الاخيرة التي

(١) الحج: ٧٧.

يحملها الانسان الحاج بعد عودته من بيت الله الحرام لكي يعكسه تطبيقاً عملياً في حياته الجديدة التي يبدؤها بعد الحج.

نذر النفس في سبيل اللّه:

بعد ذلك ينتقل السياق للحث على المزيد من الجهد والنشاط فيقول الباري تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾[1].

أي ان على الانسان المسلم ان ينذر نفسه جندياً في الصراع المرير بين الخير والشر، وبين قوة الحق والنور والهدى وقوى الباطل والظلام والضلال، وان يقف مدافعاً مستميتاً في جبهة الخير مقابل جبهات الشر والعدوان. وهذا هو معنى حق الجهاد؛ أي ان يبذل الانسان المسلم الغالي والنفيس، وان يضحي بكل ما وسعه من قوى وطاقات وجهود وأموال.. ذلك لان تاريخ الأمة الاسلامية، تأريخ عريق ومشترك يمتد الى عهد ابراهيم عليه السلام، وهو تاريخ التوحيد الالهي.

والنبي ابراهيم عليه السلام هو الذي اطلق علينا هذه التسمية التي اضحت هويتنا الحقيقية اليوم، ألا وهي هوية الاسلام. فهو الذي سمّانا المسلمين، وكانت هذه حجة علينا عند نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما يقول تعالى: ﴿**وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ**﴾[2].

---

(١) الحج: ٧٨.
(٢) الحج: ٧٨.

مرحلة الشهادة على الناس:

وعند بلوغنا هذا المستوى من الوعي والادراك والفهم للحقائق الربانية، هذا المستوى المصحوب بالعمل والسعي والمثابرة لنشر رسالة الاسلام، والدعوة إليها بين أمم الارض، فحينئذ سنكون نحن بدورنا حجة على هذه الأمم. وهذا هو مفاد قوله تعالى: ﴿**وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلى النَّاسِ**﴾[1].

وهذه المرحلة لايمكن ان نصل إليها إلاّ إذا حققنا الشروط التي أشار اليها البارئ عز وجل في قوله: ﴿**فَاَقِيمُوا الصَّلاَةَ وءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾[2].

ومن خلال توفر هذه الشروط التي حددها لنا رب العزة نكون عندئذ أهلاً لقيادة الأمم الأخرى نحو الخير والسعادة والسلام عبر الاعتصام بحبل الله المتجلي في القرآن والعترة الطاهرة والتمسك بالولاء لهم -عليهم السلام أجمعين-.

(١) الحج: ٧٨.
(٢) الحج: ٧٨.

المحتويات

المقدمة ٧

ملامح الأمة الاسلامية ٩

الجهاد حصن الأمة ٩

الأمة المصطفاة ١١

الأمة الأصيلة ١٢

الأمة الشاهدة ١٢

الوحدة عز الأمة ١٣

معالم الأمة المقتدرة ١٥

العدل قوام الحياة ١٥

معالم الأمة المقتدرة ١٦

معيار الحسن والقبح ١٨

عناصر القوة في الأمم ٢١

الأمم الحية تنمو باستمرار ٢١

كلمات تبني ٢٢

الانبهار آفة الاقتباس ٢٣

الاقتباس الايجابي ٢٤
لنحذر التقليد الأعمى ٢٤
خبراء مقلّدون! ٢٥
التجربة الاوربية في مضمار الحضارة ٢٦
سنن التحضر في القرآن ٢٧
العمل الصالح مقياس التقدم ٢٧
عوامل نهوض الأمم ٢٩
مقاييس جوهر الأمم ٢٩
السبيل الى النهوض ٣٩
١- التكامل الروحي ٣٩
٢- التكامل العميق ٤٠
٣- التكامل التنظيمي ٤٠
كيف نكون خير أمة؟ ٤٣
أمة أخرجت للناس ٤٣
الذنوب تسلب النعم ٤٤
حتى نكون خير أمة ٤٥
مسؤولية الأمة تجاه الطليعة المؤمنة ٤٩
هدف الرسالات الالهية ٤٩
أفكار تبريرية ٤٩
الموقف القرآني ٥١
كتاب الابطال المؤمنين ٥٣
العقاب الالهي في انتظار المبررين ٥٥
بين الاستسلام للارهاب والتحدي ٥٧

لنعرض انفسنا على القرآن ٥٨
الأمة والمعوقـون ٥٩
التمنيات لا تكفي ٥٩
حقيقة الاسلام..... ٦٠
مشكلة التعويـق ٦١
الآثار المرّة للتعويق..... ٦٢
لندرس الاسلام من جديد ٦٣
السبيل الى القمـة ٦٥
التقـوى أولاً..... ٦٦
نعمة الاسلام ٦٧
الأمة المقتدرة ٦٨
كيف ننشر الفضيلة في العالم؟ ٦٨
السبيل الى الوحدة ٧٣
الوحدة في خدمة الانسانية..... ٧٥
تغيير النفس انطلاقة الوحدة..... ٧٦
الوحدة وطريق ذات الشوكة ٧٨
السبيل الى الوحدة..... ٧٩
الحج العامل الأكبر..... ٨٠
هل فهمنا الحج حق فهمه؟ ٨٢
نذر النفس في سبيل اللّـه ٨٣
مرحلة الشهادة على الناس..... ٨٤
المحتويات ٨٥

جميع القضايا والحوادث التي تقع في العالم الاسلامي تتصل اتصالاً وثيقاً بالآيات القرآنية، وخصوصاً تلك الآيات التي تعتبر الأمة الاسلامية خير أمة اخرجت للناس؛ اي ان البشرية لابد ان تنتفع من بركات هذه الأمة، فهي لم تخرج لنفسها. فالمسلمون عند بعثةالرسول (صلى الله عليه وآله) لم يعملوا قط من أجل ذواتهم وقضاياهم، بل كانوا يعملون من أجل الناس جميعاً. ولذلك فان هذه الأمة وبعد ان تشكلت في شبه الجزيرة العربية بدأت تنتشر، وكلما دخلت بلداً وفتحت أرضاً نشرت فيهما الخير والبركة والحرية والعدالة.. حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً في فترة قياسية.

وعلى هذا فإن هذه الأمة انما اخرجت للناس. ولكن القرآن الكريم عندما يحدثنا عن هذه الصفة والميزة في المسلمين فانه لايترك الحديث مطلقاً، بل يقيده بان سبب تمتعهم بهذه الميزة انما هو أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.

فالمسلمون انما كانوا خيراً وبركة لانهم كانوا يدافعون عن القيم الحقة، ولانهم كانوا ينشرون العدالة في العالم، وكانوا يريدون للناس الرفاه والسعادة، ويقاومون الظلم والطغيان والبغي والمنكر.. وبالتالي فقد كانوا أمة جاءت من اجل البشرية.

وهذه الصفات هي الصفات المثلى التي جعلت الأمة الاسلامية أمة رائدة في الارض، لاتحافظ على القيم في مجتمعها فحسب، وانما تنشرها في ربوع الارض. فقد كانت تنشر العلم، والعدالة، ونور الهدى الى أبعد نقطة في الارض.

وللاسف فان هذه الأمة قد فقدت اليوم هذه الميزة، ولانها فقدتها فقد اصبحت أمة ذليلة مقسمة، وهذا هو سبب كل ما يجري علينا. فنحن قد تركنا جانباً فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..